النزعة الدينية في الخطابة السياسية

عند مصطفى كامل

«دراسة تحليلية فنية»

إعـداد

دكتور

محمد محمد عبدالله حسن سلام

أستاذ الأدب والنقد المساعد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور

جامعة الأزهر الشريف – جمهورية مصر العربية

١٤٤٤ هـ- ٢٠٢٣م

ض

النزعة الدينية في الخطابة السياسية عند مصطفى كامل «دراسة تحليلية فنية»

محمد محمد عبدالله حسن سلام
قسم الأدب والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور ، جامعة الأزهر ، مصر.
البريد الإلكتروني:
mohamedsallam385.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

الخطابة فن أدبي عريق لا غنىٰ للإنسان عنه في شتىٰ مجريات الحياة ومنعطفاتها، وهو يُعَدُّ من خير فنون القول للتأثير في الجمهور واستمالته بلغة تمزج بين العقل، وقَدْر من العاطفة لإقناعه برأي أو عمل، ومن ثَمَّ توجيهه نحو ما هو مأمول. وموضوع هذه البحث عن النزعة الدينية في الخطابة السياسية عند مصطفىٰ كامل لما كان يتمتع به من قوة في شخصيتة تعرف إمكاناتها وأهدافها جيدًا، حيث كان يدرك ما لديه من ضَعف منذ إقدامه علىٰ دراسة الحقوق، لكن قوة إيمانه بربه ثم ثقته بنفسه كانا أكبر ضامن لنجاحه، والسير قُدمًا نحو تحقيق أهدافه، حيث كان التحاقه بالحقوق هدفًا أسمىٰ؛ لكونها مدرسة الخطابة والكتابة، ومعرفة الأفراد والأمم حقوقهم.

وفي هذا البحث يتجلىٰ دور الخطابة السياسية وأثرها جليلًا، حيث لا ينطلق لسانها في مهاد بلاد الشرق إبان مواجهة المحتل فحسب، إذ راح صوتها يدوي في معاقر بلاد الغرب علىٰ لسان "مصطفىٰ كامل" باعث الوطنية والخطابة السياسية التي لم ينفك فيها عن نوازع دينية قويمة من خلال ما تشرَّبه من تعاليم الدين القويم فكان خير مداد لها فيما أَسْدَته للوطن، إذ يعاني أغلال الاحتلال البريطاني وتبعاته، حيث كانت بحق من أهم الأسلحة في مقاومته من أجل الاستقلال.

وفي هذه الدراسة يبدو دور السياسي الوطني ذي النزعة الدينية القويمة جليلًا، إذ يبعث في أصعب الظروف برسائل الثقة في نفوس الوطنيين لمواجهة كل وسائل الدسِّ وتثبيط الهمم، وإشاعة اليأس في النفوس، حيث يعمل علىٰ انتزاع كل أثر لذلك، وإزالة كل غشاوة ضُرِبت علىٰ العيون، حتىٰ ترىٰ النصر كأنه حقيقة ماثلة، وهو بلا ريب ثمرة نضال كل الوطنيين والسياسيين الشرفاء.

الكلمات المفتاحية:

النزعة الدينية – الخطابة السياسية –مصطفىٰ كامل– دراسة تحليلية فنية.

The Religious Tendency in the Political Discourse of Mostafa Kamel "An Analytical Artistic Study"

Muhammad Muhammad Abdullah Hassan Sallam.
Department of Literature and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Damanhour. Al Azhar university, Egypt.
Email: mohamedsallam385.el@azhar.edu.eg

Abstract:

Elocution is an ancient literary art that is indispensable to man in all aspects of life. It is considered one of the best arts of speech to influence the audience and win them over in a language that mixes reason with a bit of passion to convince them of an opinion or action, and then direct them towards what is hoped for. The subject of this research is about the religious tendency in the political elocution of Mustafa Kamel, because he had a strong personality who knew its capabilities and goals well, as he was aware of his weaknesses since he started studying law, but the strength of his faith in his Lord and then his self-confidence were the greatest guarantor of his success and moving forward towards achieving his goals. His enrollment to law school was a supreme goal for being a school of elocution and writing, and also for being a way for individuals and nations to know their rights. In this research, the role and impact of political elocution is evident, as its tongue does not only sound in the cradle of the eastern countries during the confrontation with the occupier, but also its voice resounded in the western countries on the tongue of "Mustafa Kamel", the motive of patriotism and political elocution, in which he did not cease to have strong religious tendencies through what he learned from the teachings of the true religion, he was the best supporter for it in what it did for the homeland, as it suffers from the shackles of the British occupation and its consequences. It was truly one of the most important weapons in his resistance for independence. In this study, the role of the patriotic politician with the upright religious tendency appears to be great, as he sends messages of confidence in the hearts of the patriots in the most difficult circumstances to confront all means of intrigue, discouragement, and spread despair in the souls. He works to

extract every trace of that, and remove every mist that struck the eyes, so that you see victory as a reality. It is undoubtedly the fruit of the struggle of all patriots and honorable politicians.

keywords:

Religious tendency - political elocution – Mostafa kamel- Technical analysis study.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ وعلىٰ آله وصحبه، وجميع من تبعه باجتهاد وإحسان..

وبعد..

فإن الخطابة فن أدبي عريق لا غنىٰ للإنسان عنه، وهي تُعَدُّ أُمَّ فنون النثر؛ وذلك لما لها من تأثير بالغ في مختلف المناسبات وشتىٰ مجريات الحياة ومنعطفاتها الثقافية والاجتماعية والسياسية وارتباطها بعطاءات التاريخ، وأحداث الواقع، في لغة تمزج بين العقل، وقَدْر من العاطفة..

ولذا، فقد عاش هذا الفن مع الإنسان علىٰ مَرِّ العصور، وسيظل كذلك فنًّا ثَرًّا نابضًا ما بقيت الحياة والأحياء، حيث تُعَدُّ من خير فنون القول في التأثير في الجمهور واستمالته لإقناعه برأي أو عمل، ومن ثَمَّ توجيهه ليقوم بدوره الذي يراد منه..

علىٰ أن عناية بعض الدارسين والباحثين بما هو جدير بهذا الفن القولي الأثير من دراسات دون ما هو مأمول حتىٰ بلغ الأمر بهذا الفن الأصيل أنه بات لدىٰ البعض يكاد لا يكون في عداد فنون الأدب، وليت شعري أنَّىٰ لهم بقول أبي عمرو بن العلاء[1]:

" كان الشاعر في الجاهلية يقدَّم علىٰ الخطيب .... فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلىٰ السوقة، وتسرعوا إلىٰ أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج ٤، ص ٨٣.

وما أجلَّ جلال هذا الفن البليغ، إذ يبلغ من التقدير ما يتمثل في بيان سيدنا محمد ﷺ خير من ارتقىٰ منبرًا فخطب وأبان، فذهب قوله الشريف في العالمين كل مذهب: **"مَن قال لصاحبِه يومَ الجمعةِ، والإمامُ يخطبُ: أَنْصِتْ، فقد لغا"!**[1]

وإذا كان التاريخ لم ينسَ للخطابة دورها وأثرها علىٰ لسان الخليفة الراشد "أبي بكر الصديق" يوم "السقيفة" إذ أعادت للأمة صوابها حين صعدت روح نبيها ﷺ إلىٰ معية ربها. كما لم ينسَ لها دورها وأثرها في فتح الأندلس علىٰ لسان القائد المسلم "عقبة بن نافع" فإن التاريخ لم ينس كذلك دورها وأثرها في العصر الحديث في مهاد الشرق إبان مواجهة محتل بلادها، حيث ارتفع صوتها في معاقر بلاد الغرب علىٰ لسان "مصطفىٰ كامل" باعثها وباعث الوطنية من خلال خُطَبه السياسية التي لم ينفك فيها عن نوازع دينية قويمة جعل ينهل في خطبه من معينها وَيعَلُّ مستمدًّا بذلك يقينًا لا يختل، وثباتًا لا يهتز، وثقةً لا ريب معها في تحقيق النصر، وتقديرًا دقيقًا للحياة بقدرها، والآخرة بخلودها..

وللخطابة السياسية شأن أي شأن، إذ إنها في سُمُوِّ غاياتها لا يُستغرَب أن تكون صنوًا ومرادفًا للوطنية "فأكثر الذين انتهت إلينا آثارهم من خطباء السياسة كانوا في نفس الوقت دعاة الوطنية المخلصة"[2].

وقد عِشتُ – قدر طاقاتي وإمكاناتي – مع الخطابة السياسية بصفة عامة، وخطابة "مصطفىٰ كامل" بصفة خاصة وما يتصل بها من أحوال ومقتضيات – دون مبالغة مني – لسنوات غير قليلة، لا أدعي أنني قد أدركت نتيجة ذلك ما لم يدركه السابقون، غير أنني قد ازددت – بموضوعية البحث وحياديته وأمانته – إيمانًا

---

(١) حديث نبوي شريف رواه أبو هريرة، متفق عليه، وفي رواية أخرىٰ: "ومَن لَغا فلا جمعةَ له.

(٢) د. عبد الصبور مرزوق: الخطابة السياسية في مصر من الاحتلال البريطاني إلىٰ إعلان الحماية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٨.

بأصالة هذا الفن الثري الأثير بالغ التأثير، والدور الجليل الذي أَسْدَته الخطابة السياسية في أصعب لحظات الوطن إذ يعاني أغلال الاحتلال وتبعاته، تلك الخطابة السياسية التي تمثلت في أسمىٰ صورها علىٰ لسان خطيبها الفذ الذي بَذَّ قرائح طغام الاحتلال والعدوان في خطبه السياسية التي أمدها بخير مداد من خلال ما تشرَّبه من تعاليم الدين القويم ومعطيات الإيمان..

أسباب اختيار الموضوع:

تتمثل أسباب اختيار الموضوع وأهميته بإيجاز فضلًا عما سبق ذكره فيما يأتي:

١- جدارة النتاج الخطابي كمًّا وكيفًا لدي مصطفىٰ كامل بالدراسة، ولا سيما من خلال النزعة الدينية في خطابته السياسية.

٢- إحجام كثير من الباحثين عن خوض مثل هذه الدراسات لأسباب متنوعة إيثارًا للسلامة التي لا تكون بالهروب، أو التقاعس، أو الإهمال الذي لا يأتي بخير.

٣- تزكية فكرة أنه لا تنافي بين الدين والوطن والسياسة والفن، ذلك أن "الدين والوطن توءمان متلازمان" علىٰ حد قول "مصطفىٰ كامل" في إحدىٰ خطبه، كما أن الخطابة فن، والسياسة – كما هو مشهور عنها – أنها فن الممكن.

٤- الإسهام في تقديم دراسة منصفة لهذا الفن القولي الأصيل تضيف إلىٰ مكتبة الدراسات الأدبية عملًا أرجو الله به أن يكون زادًا لطلاب العلم والأدب وشداته.

إشكالية البحث:

تتجلى إشكالية البحث من خلال طرح التساؤل الآتي:

موضوع البحث عن النزعة الدينية في الخطابة السياسية، والسياسية ليست شيئًا معلقًا في الهواء، إذ هي مرتبطة بالرأي العام، وهو عرضة للتطور والتغير حسب تغير الظروف والأحوال وأحداث الواقع التي لا تقبل بغير أن ترىٰ معطيات الدراسة يمكن أن تعود بمردود إيجابي علىٰ المستوىٰ العام والخاص، فإلىٰ أي مدىٰ يمكن المواءمة بين كل هذه الاعتبارات بصورة إيجابية علىٰ مختلف المستويات؟

أهداف البحث:

تتمثل الغاية من خلال هذه الدراسة تحقيق عدة أهداف علىٰ النحو الآتي:

١ــ استجلاء القيم الموضوعية والقضايا والمضامين الفكرية في خطب مصطفىٰ كامل السياسية.

٢ــ استجلاء المظاهر الجمالية التي تشكَّل من خلالها البناء الفني لخطب مصطفىٰ كامل السياسية في صورة ثرية.

٣- محاولة ربط الواقع السياسي بمعطيات الدين للاستمداد من منابعه النقية، وروافده القويمة للعمل علىٰ معالجة الواقع بوعي وأمانة بصورة تدعم مسيرة الوطن من خلال رؤية دقيقة متكاملة، وآلية واضحة وممكنة.

منهج الدراسة:

اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن أعتمد علىٰ المنهج التاريخي في التمهيد والإضاءات التعريفية، والمنهج التحليلي في شق الدراسة الموضوعية، والمنهج الفني في شق الدراسة الفنية، دون إغفال للإفادة من أي منهج يعين علىٰ إخراج البحث في صورته المنشودة.

خطة الدراسة:

تتمثل خطة دراسة هذا الموضوع في ثلاثة فصول تسبقهم مقدمة وتمهيد، وتلحقهم خاتمة، ثم قائمة للمصادر والمراجع، ثم فهرس للمحتويات، وذلك علىٰ النحو الآتي:

مقدمة: عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وإشكاليته، وأهدافه، ومنهجه، وخطته.

تمهيد: عن فن الخطابة وتطورها وتنوعها: إضاءات تاريخية، ومقاربات تعريفية.

الفصل الأول: مصطفىٰ كامل: إضاءة تعريفية وبواعث خطابية

الفصل الثاني: النزعة الدينية في الخطابة السياسية عند مصطفىٰ كامل. قضايا وموضوعات

الفصل الثالث: النزعة الدينية في الخطابة السياسية عند مصطفىٰ كامل. دراسة فنية

الخاتمة: وبها أهم نتائج البحث

قائمة بمصادر البحث ومراجعه

فهرس المحتويات

تمهيد

فن الخطابة وتطورها وتنوعها: إضاءات تاريخية، ومقاربات تعريفية

الخطابة: أهميتها وتطورها على مر العصور:

الخطابة فن أدبي عريق لا غنىٰ للإنسان عنه، وهي تُعَدُّ أُمَّ فنون النثر؛ وذلك لما تنطوي عليه من شمولية معالجة شتىٰ شؤون الحياة، واشتمالها علىٰ المأثور من القرآن وآي الذكر الحكيم، وأحسن الحديث، وجليل الحكم، وسائر الأمثال، وأثير الوصايا، وحسن توظيف القصِّ، وارتباطها بعطاءات التاريخ، وأحداث الواقع، في لغة تمزج بين العقل، وقَدْر من العاطفة..

ولذا، فقد عاشت الخطابة مع الإنسان في سالف الدهور وعلىٰ مَرِّ العصور، وستظل الخطابة كذلك فنًّا حيًّا نابضًا ما بقيت الحياة والأحياء؛ إذ هي ضرورية لكل أمة في جل شؤونها المختلفة، وظروفها المتغايرة إقامةً وظَعنًا، فرحًا وترحًا، سلمًا وحربًا..

والخطابة تُعَدُّ خير وسيلة للتأثير في الجمهور واستمالته لإقناعه برأي أو عمل، ومن ثَمَّ توجيهه ليقوم بدوره الذي يراد منه، ولا يكون ذلك كرهـًا أو قسراً، بل يكون ذلك من خلال ما يستعين به الخطيب، وما تتحلَّىٰ به الخطابة من مثيرات وعوامل تعتمد علىٰ مقادير من الفصاحة والبلاغة مشفوعة بوسائل من التشويق والإمتاع والإقناع، وحسن الطرح والعرض، والذكاء في التناول، وسلامة الاستدلال، ولذا فقد صدق من قال: "الخطابة هي فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته"[(١)].

الخطابة في العصر الجاهلي:

كان للخطابة عند العرب منذ العصر الجاهلي شأن أيُّ شأن؛ إذ لم تكن لِتَقِلَّ عن فَنِّ الشعر في المنزلة والتأثير، بل قد تفُوق منزلةُ الخطيب منزلةَ الشاعر. يقول أبو

---

(١) د. أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، نهضة مصر، ص ٥.

عمرو بن العلاء[1]: "كان الشاعر في الجاهلية يقدَّم علىٰ الخطيب لفرط حاجتهم إلىٰ الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويُفخِّم شأنهم، ويُهوِّل علىٰ عدوِّهم..... فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مَكسَبة، ورحلوا إلىٰ السوقة، وتَسرَّعوا إلىٰ أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر".

الخطابة في ظلال الإسلام:

بحسب الخطابة شرفًا أن تكون وسيلة الرسل الكرام في تبليغ دعوة ربهم إلىٰ أقوامهم. قال الله تعالىٰ[2]: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾

ولقد نالت الخطابة من التقدير والاهتمام منذ فجر الإسلام ما جعلها ترتقىٰ وتزدهر رقيًّا بالغًا وازدهارًا عظيمًا؛ حيث قرر الشرع الحكيم لها حُكمًا بليغًا في الجُمَع والأعياد، فقد بلغ تقديرها حد القداسة، وآية ذلك أن الرسول ﷺ جعل الكلام أثناء الخطبة من قبيل اللغو الفاسد والمفسد، كما جعل من يتكلم أثناء خطبة الجمعة يُوصَف بأنه لاغٍ، وأنه لا جمعة له، علىٰ نحو ما يتمثل في قوله ﷺ في شأن الكلام والمتكلم أثناء خطبة الجمعة التي تُعَد عيدًا أسبوعيًّا للإسلام والمسلمين[3]: "من قال لصاحبِه يومَ الجمعةِ، و الإمامُ يخطبُ: أَنْصِتْ، فقد لغا".

ويقول صاحب الصناعتين[4]: "الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد والجمع والجماعات....".

---

(1) الجاحظ: البيان والتبيين، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج٤، ص٨٣.

(2) سورة إبراهيم: آية ٤.

(3) حديث نبوي شريف رواه أبو هريرة، متفق عليه، وفي رواية: "ومَن لَغا فلا جمعةَ له" – البخاري ومسلم.

(4) أبو هلال العسكري: الصناعتين ص١٣٦ المكتبة العصرية بيروت.

وحين يتجه الخطيب إلىٰ الجمهور بإخلاص، ويحرص علىٰ مصلحة الأمة، وتسمو الغاية، تكون النتيجة جليلة لدىٰ الخطيب والمخاطبين، علىٰ نحو ما يقول الجاحظ[١]:

"فإذا أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة، ومصلحة حال الخاصة، وكان ممن يَعُمُّ ولا يَخُصُّ، وينصح ولا يغش، وكان مشغوفًا بأهل الجماعة.. جُمِعتْ له الحظوظ من أقطارها، وسِيقت له القلوب بأزمتها، وجُمِعت النفوس المختلفة الأهواء علىٰ محبته وجُبِلت علىٰ تصويب إرادته ".

وإن الإسلام ليقدِّر للخطابة فضلها يوم السقيفة في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن لحق الرسول الكريم ﷺ بالرفيق الأعلىٰ جلَّ جلاله حين قال أبو بكر في خطبته[٢]: "مَنْ كان يعبد محمدًا ﷺ، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت".

التاريخ لا ينسى دور الخطابة في كل حال ومآل..

التاريخ لم ينسَ دور الخطابة وفضلها كذلك في مختلف الوقائع والحروب التي غيرت وجه التاريخ، علىٰ نحو ما كان في موقعة القادسية، وموقعة اليرموك، وغير ذلك كثير.... وما خطبة "طارق بن زياد " في فتح بلاد الأندلس ببعيد حين قال لجنوده في خطبته التاريخية المشهورة بعد أن عبر بهم البحر[٣]:

"أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس ثَم والله إلا الصدق والصبر فإنهما لا يُغلبان...." العدو من أمامكم والبحر من ورائكم ".

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، دار الفكر العربي، بيروت، ج٢، ص ١٩٢.

(٢) تنظر الخطبة في البخاري برواية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٣) ابن قتيبة: تاريخ الخلفاء، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٨٠م، ج٢، ص١١٤.

إن التاريخ كثيراً ما يسجل ويحدِّث عن أمم حقق لها قادتها النصر العتيد والمجد التليد مستعينين في ذلك بخطابة أمراء البيان الذين كان لخطابتهم فيها أقوىٰ الأثر وفعل السحر...

وكم قامت علىٰ الشعر والخطابة حضارات أمم ونهضة بلاد، علىٰ نحو ما كان لدىٰ حضارات أمم اليونان والرومان والفرس قديمًا، ونهضة بلاد فرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، وروسيا، وإنجلترا، وغيرها حديثاً؟!

وما أجلَّ قول إمام الرسل والأنبياء، وسيد الخطباء والبلغاء سيدنا محمد ﷺ حين "جَاءَ رَجُلَانِ مِنَ المَشْرِقِ فَخَطَبَا، فَقَالَ ﷺ[1]: "إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا!".

ولقد استمر تطور الخطابة علىٰ مَرِّ العصور المتعاقبة في مختلف المجالات والمآلات والمناسبات: أسبوعيةً، كانت أو شهريةً أو موسمية، حيث تصطبغ في كل عصر بصبغته قوةً أو ضعفًا، نهضةً أو تخلفًا.

الخطابة في العصر الحديث:

حين يصل الدارس إلىٰ العصر الحديث آخذًا في تَتبُّع أحواله تَعثُّرًا أو نهوضًا، وتَفحُص فنون الكلم ذات الأثر الفعَّال في كل ميدان ومجال يجد الخطابة علىٰ خير وجه تقوم بدورها جنبًا إلىٰ جنب بجوار السيف والقلم، حيث تعددت ميادينها، وكثرت دواعيها. " فقد بدت الخطابة من أهم وسائل تنمية الوعي وإنضاجه، كما كانت من أهم وسائل التعبير عن الدعوات الإصلاحية في السياسة والاجتماع"[2].

وإذا كانت الأزمات تخلق الرجال، فإنها كذلك تجلِّىٰ قيمة الفن وجلال دوره، وعظيم أثره، علىٰ نحو ما كان للخطابة من دور إبان الاحتلال البريطاني منذ سنواته الأولىٰ، فقد عملت الخطابة علىٰ بعث الروح الوطنية وإيقاظها من أجل النضال

(١) رواه البخاري برواية عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) د. احمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، مصر، ط ٥، ص ٧٥.

والمقاومة، فكانت الخطابة من أهم الأسلحة في مقاومة الاحتلال، حيث " شهدت تلك الفترة طائفة كانوا مِن أعظم من عرف تاريخ الأدب الحديث من خطباء، كما حظي التراث الأدبي بجمهرة من أروع ما ضم هذا التراث من خطب"(١).

وكان من أشهر أولئك الخطباء: الشيخ محمد عبده، والشيخ علىٰ يوسف، والثائر عبد الله النديم، ومصطفىٰ كامل، وسعد زغلول، وغيرهم كثير... لقد عرفت الخطابة في هذه الفترة ثقافة أعمق، وفكراً أنضج، واتصالًا بالمعارف السياسية والمباحث الاجتماعية، والمواد الدستورية والقانونية. وقد أمدها كل ذلك بحيوية أكثر، وفاعلية أقوىٰ، ومنحها قيمة فنية أعلىٰ، وقوىٰ اتصالها بالأصالة، والإبداع والموضوعية"(٢).

أغراض الخطابة وتنوعها:

الخطابة ضرورية للناس جميعًا، حيث لا غنىٰ لهم عنها في أي غرض يخص كبيرًا أو صغيرًا، عالِمًا أو متعلِّمًا، سالمًا مسالمًا أو جاهدًا ومجاهدًا ومقاتلًا، قاضيًا أو متقاضيًا، رئيسًا أو مرؤوسًا، أميرًا أو مأمورًا، مليكًا أو مملوكا..

وقد تعددت مجالات الخطابة وتنوعت منذ العصر الجاهلي، ثم ازدادت تنوعًا وقوة وتأثيراً في عصر صدر الإسلام نظراً لظروف الحياة الجديدة من أمور دعوة الناس إلىٰ عبادة الله خالق الناس أجمعين، والإيمان برسوله ﷺ الذي أرسله برسالة الإسلام الخاتمة للناس كافة.

(١)د. احمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر: ص ١٧٤.

(٢) السابق: ص ١٧٨.

ولقد كان للخطابة أدوار جليلة في مختلف المناسبات، والمواجهات مع الشرك وأهله بلاغًا خطابيًّا مباشرًا، وإيفاد الخطباء للإبلاغ، أو مواجهة خطباء وفود القبائل والممالك والإمارات، أو الإعداد للغزوات وكل المآلات..

الخطابة بين المدلول اللغوي والتعريف الاصطلاحي:

من خلال الرجوع إلىٰ معاجم اللغة للوقوف علىٰ معطيات المدلول اللغوي يتجلىٰ ما للخطابة من جلال وأهمية؛ إذ إن جِذر مادتها (خ ط ب) مأخوذ من الخطب: وهو الأمر الجليل؛ وذلك لارتباط الخطابة بحدث أو حادثة مهمة، فيكون ذلك مرتبطًا بالجمهور والتأثير فيه، ولذا فهي تعتمد علىٰ ثلاثة عناصر:

١- حدث أو خطب جلل أو أمر مهم.

٢- جمهور يرتبط بهذا الخطب أو ذلك الحدث.

٣- بيان في خطبة مؤثرة.

وبديهي أن الحديث عن المدلول اللغوي للخطابة ينتقل بالدارس إلىٰ الحديث عن مدلولها الاصطلاحي علىٰ نحو يضبط تعريف الخطابة بأنها:

فن مخاطبة الجمهور نثراً حول موضوع محدد، في إطار وأداء مخصوص، بغرض استمالة المخاطَبين، والتأثير فيهم، وتوجيههم.

خلاصة ولطيفة:

- **أما الخلاصة**، فإن الخطابة أولًا وأخيرًا عمادها أمران:

أولهما: الموهبة والملكة التي تُعَد أمرًا فطريًّا لدىٰ الخطيب يجعله يتمتع بالقدرة علىٰ مخاطبة الجمهور بيسر وثبات.

وثانيهما: الدربة والاكتساب بالمرانة والتعليم وكثرة الاطلاع الذي يزيد الموهبة صقلًا ورقيًّا وازدهارًا..

- **وأما اللطيفة**، فإنه لكي يظل للخطيب مكانته لدىٰ الجمهور، ويدوم التواصل علىٰ أحسن حال يجب علىٰ الخطيب الذكي أن يترك الجمهور قبل أن يتركه، حتىٰ لا يسأم، أو يمل وينصرف علىٰ كره، بل يجعله ينصرف علىٰ شوق وتَوْق إلىٰ العودة إلىٰ رحاب الخطابة في حميمية وحيوية، إذ يتجدد اللقاء.

الفصل الأول

مصطفى كامل إضاءة تعريفية وبواعث خطابية

الحالة السياسية:

وُلِد مصطفىٰ كامل قبل وقوع مصر تحت سيطرة الاحتلال الإنجليزي ببضع سنوات، حيث كانت البلاد تمر بظروف سياسية مضطربة مع تزايد ضعف الخلافة العثمانية في مقابل تزايد التدخل الأجنبي مما مهد لقيام الثورة العرابية، غير أن الأمور- لأسباب مختلفة – آلت بالبلاد إلىٰ الوقوع في أسر الاحتلال، وإصابة المصريين بحالة من الإحباط واليأس والشعور المرير بخيبة الأمل، وافتقاد الحريات، وقد بات هذا الوضع مخيِّما علىٰ مدىٰ السنوات الأولىٰ من بداية الاحتلال..

من هنا تتجلىٰ قيمة الدور الوطني الذي اضطلع به مصطفىٰ كامل رغم أنه شب في تلك الظروف القاسية والأحوال البائسة، حيث شرع يستبدل باليأس أملًا، وبالجمود حياة وجهادا"[1].

مولده ونشأته وتعليمه:

ولد مصطفىٰ كامل في حي الصليبة بقسم الخليفة يوم١٤ أغسطس١٨٧٤م.

والده: هو علىٰ أفندي محمد المولود في كتامة الغاب، محافظة الغربية. وقد كان أحد أخيار المهندسين الضباط.

---

(١) اعتمدتُ في هذه الإضاءة التعريفية علىٰ كتابَي: مصطفىٰ كامل باعث الحركة الوطنية لعبد الرحمن الرافعي، ط ٥، دار المعارف ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م. وكذا كتاب: أوراق مصطفىٰ كامل: إشراف وتحقيق: د. يواقيم رزق مرقص، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م. وقد شاركه في إعداد مادة الكتاب وتحقيقها: آمال الحسيني الفيومي، وأستيرة غالي تاوضروس، وخلف عبد العظيم الميري، وعفاف محمد خيري، وسامية ثابت عبد المعطي.

ووالدته: هي السيدة حفيظة كريمة اليوزباشي محمد أفندي فهمي صاحبة فضل كبير في نشأة مصطفىٰ خلوقًا محِبًّا للخير صبورًا جلدًا، علىٰ نحو ما ورث من صبرها علىٰ متاعبها وآلامها لمرضها بالقلب..

قام الوالد بدور مهم يغرس ثوابت مهمة في نفس مصطفىٰ منذ نعومة أظفاره متل حسن الخلق والصدق والشهامة مع ما كان يقصه عليه وإخوته من قصص مثيرة وثرية وعاها مصطفىٰ باهتمام، وأفاد منها فوائد جمة وجليلة تاريخًا وواقعًا وخيالًا وفكرًا وأسلوبا..

كما أن والده قد زكىٰ ذلك باستقدام شيخ يدعىٰ أحمد السيد كىٰ يعلم مصطفىٰ في البيت القراءة والكتابة والحساب، ثم أرسله بعد ذلك إلىٰ الكتاب كىٰ يحفظ حفظ القرآن الكريم..

في المرحلة الابتدائية:

التحق مصطفىٰ في السادسة من عمره بمدرسة "الصلبية"، ثم انتقل إلىٰ مدرسة "السيدة زينب" بسبب تعرضه لموقف ظالم لم يقبله، وهو موقف تبدو من خلاله سيماء الشمم والإباء، ثم انتقل إلىٰ مدرسة "القربية" نظرًا لوفاة والده، كي يقيم في بيت جده لأمه.

وقد أظهر مصطفىٰ في تلك المدارس إقبالًا شديدًا علىٰ الدراسة وحب الحساب والتاريخ، كما أظهر ذكاء واضحا وتفوقا جعله أول أقرانه في حصوله علىٰ الشهادة الابتدائية.

التلميذ الرجل في المرحلة الإعدادية:

التحق مصطفىٰ بعد ذلك في المرحلة الإعدادية بالمدرسة التجهيزية الخديوية حيث نمت في هذه المرحلة شخصيته مما أكسبه احترام أساتذته وزملائه لنبوغه

الواضح، وفصاحته في بيانه، وبلاغته في إلقائه، وسمو نفسه، واستقلال شخصيته وفكره..

وقد عرفه "علىٰ مبارك" وزير المعارف، وأعجب به إعجابًا كبيرًا، وبشره بأنه سيكون عظيمًا، وكان يدعوه إلىٰ منزله ويقدمه إلىٰ جلسائه من العلماء والكبراء ويثني عليه، علىٰ نحو ما يذكر الشيخ "علي يوسف" أنه كان في مجلس حافل بالأدباء والفضلاء بمجلس علىٰ مبارك، وإذا بمصطفىٰ يقول له: " إنني لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذا مثلي، وما يدريك ألا أكون عظيما أخدم وطني غدا بأكثر مما تخدمه أنت اليوم؟

– وبعد ما خرج، ابتسم الباشا قائلًا: إنني أعجب بشجاعة هذا التلميذ، ويلذ لي أن يتكلم أمامي بمثل هذه الشجاعة التقسية.." يقول الشيخ علي يوسف: "من اللحظة عرفت مصطفىٰ كامل، وكأنما عرفت رجلًا لا تلميذا" [1].

نمو الشعور الوطني في المرحلة الثانوية:

بعد حصوله علىٰ الشهادة الإعدادية، التحق مصطفىٰ بالمرحلة الثانوية، وفي هذه المرحلة شرع يتنامىٰ لديه الشعور الوطني، حيث جعل يتأمل حال وطنه الذي وُلد فيه ونشأ وتربىٰ وتمتع بطفولته، وتعلم في مدارسه، وشرف بعراقة تاريخه والانتساب إليه، غير أنه يعاني من استنزاف مقدراته، وتقييد حرياته، وسيطرة الاحتلال الآثم الجاثم علىٰ صدور المصريين، حيث جعل الشعور الوطني يتزايد بأن للوطن حقوقا علىٰ أبنائه وكل فئاته تفرض عليهم أن يردوا إليه كرامته وعزته..

---

[1] عبد الرحمن الرافعي: مصطفىٰ كامل باعث الحركة الوطنية ص ٣٧.

ولذا، عمل مصطفىٰ في هذه المرحلة علىٰ إنشاء جمعية وطنية أدبية أسماها جمعية الصليبة الأدبية، ولم يكن ليكتفي في مستهل حياته الوطنية بذلك، حيث راح يتواصل مع غيرها من الجمعيات ذات الاهتمامات الوطنية، فتجلت موهبته الخطابية حيث كان يقف مساء كل جمعة خطيبًا يرتجل ما تمليه عليه نوازعه ومشاعره، وموهبته وثقافته وشخصيته التي باتت ذات صبغة وطنية فتية متوهجة، وأول خطبة ألقاها كانت عن فضل الجمعيات في العالم(١).

دراسة الحقوق والأخلاق والوطنية والعبقرية:

في سنة١٨٩١م نال مصطفىٰ شهادة الثانوية، فكانت مدرسة الحقوق هي وجهته علىٰ نحو ما سجله في خطاب أرسله إلىٰ أخيه الضابط علي فهمي معللا ذلك بقوله(٢):

" لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم، وأنت تعلم أنىٰ أميل إليها كثيرًا، وعزمت لذلك علىٰ تأسيس جمعية أسميها جمعية إحياء الوطن".

كشف مصطفى في هذه الرسالة عن أمرين مهمين، فضلًا عن عزمه السالف وإرادته القوية:

١ _ **الأمر الأول**: هو حالته الصحية، حيث يقول بعد تبشيره أخاه بحصوله علىٰ الثانوية: "فقد نلتها بعد أن أضنت جسمي فأصبح نحيلًا، لا صحيحًا ولا عليلا".

٢ _ **والأمر الآخر**: هو إيمانه الثابت بالله، وثقته الشديدة بنفسه، حيث يقول معقبًا علىٰ عزمه السالف(٣): " وربما دهشت من إقدامي هذا لضعفي الذي تعلم في

(١)عبد الرحمن الرافعي: مصطفىٰ كامل باعث الحركة الوطنية: ص ٣٨.

(٢) السابق نفسه: ص ٣٨.

(٣)السابق نفسه ص ٣٩.

اللغة الفرنساوية، ولكن اعتمادي علىٰ الله، وعلىٰ نفسي أكبر ضامن لنجاحي، والله الموفق إلىٰ أقوم سبيل".

لقد كشف الأمران السابقان عن جوانب مهمة في شخصية مصطفىٰ كامل، إذ هي شخصية تنظر إلىٰ الأمور بواقعية، لكنها بما لديها من نوازع دينية راسخة، ومواهب ومؤهلات متنوعة جعلته ذا شخصية قادرة علىٰ مواجهة ضعفها، وتسعي إلىٰ استمداد أسباب العلم والقوة، وتحقيق النجاح، إذ هو يعرف أهدافه من خلال دراسته الحقوق سواء في مصر أو في فرنسا، تلك الأهداف التي تمثلت في الآتي:

١ – التمتع بالحرية التي تصبو إليها نفسه من أجل أن يتمتع بها وطنه كذلك.

٢ _ إجادة اللغة الأجنبية الفرنسية حتىٰ يتمكن من الدفاع عن حقوق بلاده خارج حدود الوطن لا داخله فحسب..

التحق مصطفىٰ بمدرسة الحقوق الخديوية، ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية، فأكب علىٰ الدراسة ليل نهار، علىٰ أنه قد أكثر مصطفىٰ من كتاباته الوطنية في صحيفتي: الأهرام والمؤيد، كما ألَّف رسالة "أعجب ما كان في الرق عند الرومان" وهي عن حقيقة الاستعباد الروماني كاشفا فيها عن سماحة الإسلام من أجل خير الإنسان وحريته وكرامته..

_ في هذه المرحلة أنشأ مصطفىٰ مجلة "أسماها" المدرسة وهي مجلة وطنية أدبية تهذيبية علمية تصدر غزة كل شهر عربي، جعل شعارها: (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك) ويعد ذلك عملاً جليلًا يدل علىٰ علو همته، ومضاء عزيمته، ووطنيته الهادرة، وإنسانيته الباهرة؛ حيث يقول عن نشأتها[1]: ".... أنشأتها لخدمة الناشئين، لا للربح والشهرة".

(١) عبد الرحمن الرافعي: مصطفىٰ كامل باعث الحركة الوطنية ص ٤٨.

_ وفي هذه المرحلة ألَّف مصطفىٰ كامل كذلك رواية (فتح الأندلس) معالجًا فيها أحداث الفتح الإسلامي وعوامله هادفًا من وراء ذلك إلىٰ الاستمداد من تلك الروافد، واستلهام عوامل بعث الروح وقوة العزيمة لتحقيق النصر..

_ وفي نوفمبر ١٩٨٤ أتم مصطفىٰ كامل دراسة القانون في كلية تولوز بفرنسا وهو ابن عشرين عامًا، فكتب إلىٰ أخيه علىٰ فهمي رسالة يقول فيها[١]: " اليوم أحمد الله كثيرا وأشكره جزيلا... فقد أصبحت حاملاً شهادة الحقوق... لأدافع عن حقوق الأفراد، ولو أتيح لي الخير وبلغت ما أتمنىٰ لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع".

بعد دراسة الحقوق: الوطن قضية مصطفى كامل:

استهل مصطفىٰ كامل نضاله الوطني من باريس عقب تخرجه بحديث له في صحيفة (جازيت دي تولوز) أعلن فيه رفضه تقلد وظيفة تنفذ إرادة المحتل معللًا ذلك بقوله[٢]: " لأنىٰ ممن يزدرون الحكومة.. ولا يرون التوظف فيها أو الاستظلال بظلها، وكيف لا يكون الأمر كذلك والموظف منفذ لإرادة من اغتصب أتمن وأقدس شيء لديكم وهو الدستور".

إن تلك الروح القوية جعلت تلك الصحيفة تعلق علىٰ ذلك الصوت الوطني المدوي مقدرة ومبشرة ومفاخرة ومعلنة للعالم قولها الخالد: "وليس في وسعنا بعد الذي شاهدناه من ذكاء مصطفىٰ كامل إلا أن نهنئ مصر به، ونرجو له النجاح التام في العمل الذي يريد به خدمة بلاده؛ لأن الغيرة التي شاهدناها علىٰ محياه، والطلاقة التي تشير إلىٰ مستقبله الباهر، والتي تدل بأوضح بيان علىٰ أنه من الذين وهبوا الخطابة لا بد أن ترفعه إلىٰ مصاف مشاهير الرجال... وإن مدينة تولوز لتفخر بأن

(١)عبد الرحمن الرافعي: مصطفىٰ كامل باعث الحركة الوطنية: ص ٥٢.

(٢) السابق: ص ٥٣.

تسجل في عداد الذين تخرجوا من كلياتها شابًّا كهذا الشاب نقي الفؤاد متصفا بكل ما يزين المرء من علم وأدب ورأي صائب".

وعقب تخرجه بأقل من عام سافر مصطفىٰ كامل إلىٰ فرنسا حيث ألقي خطبة تاريخية مسهبة باللغة الفرنسية بمدرج كلية الآداب في "تولوز" في حضور أساتذة الحقوق وكبار الصحفيين وذوي الرأي، وهي تعد أول خطبة سياسية لمصري في أوربا تحدث فيها عن سياسة الاحتلال الإنجليزي في مصر واعتداءاته علىٰ مختلف شؤونها ومؤسساتها، ونقضه كل العهود والوعود، علىٰ نحو ما كشف عنه في تلك الخطبة بقوله[1]:

"... فهل احترمت هذه المعاهدات...؟ هل تركت بالفعل مصر لنفسها بدون أن تسلبها شيئا من أراضيها أو تنال امتيازًا خاصا بها؟ كلا، ثم كلا. لقد نقضت انجلترا...."

_ وقوله عن "اللورد كرومر" الحاكم الفعلي للبلاد آنذاك وسياسته الخادعة في العمل وأنها تمثل في: " انتخاب غير الأكفاء في الدواوين والمصالح ليكونوا من جهة آلات في يديه، ومن جهة أخرىٰ برهانًا لأوربا علىٰ أن مصر محرومة من الرجال الأكفاء، ولا قدرة لها علىٰ حكم نفسها بنفسها".

_ وقوله عن إفسادهم في نظارة أي وزارة المعارف: " ولا شك أن النظارة التي أضر بها النفوذ الإنكليزي أكثر من كل نظارة سواها هي القائمة علىٰ المعارف العمومية، فإن الإنكليز يعملون دائما لإقفال المدارس من جهة ونشر لغتهم... من جهة أخرىٰ".

(١) تنظر الخطبة كاملة في كتاب: أوراق مصطفىٰ كامل، ص ٥٨ – ٧٢.

_ وقوله مستقبحًا تلك الأساليب: " إنها حقًّا لطرق مشينة غير لائقة بدولة عظيمة كإنكلترا تدعىٰ أنها ممدنة العالم".

_ وهو يقول مثل هذا عن باقي الوزارات والمؤسسات كاشفًا ومفصِّلًا وفاضحًا تلك السياسات الخادعة والآثمة والمعتدية علىٰ كل شيء...

علىٰ أنه يجمل ما فصله، ثم يخصص أسوأ مساوئ الإنكليز وأخس خسائسهم في العزف علىٰ أوتار الدين باتهام المصريين بالتعصب الديني وبغض المسحيين لإحداث فتنة دينية بين المصريين من جانب واستعداء المسيحيين في أقطار العالم ضد مصر، وهو ما كشفه وفضحه مصطفىٰ كامل في خطبته التاريخية هذه في إحدىٰ أعظم أقطار أوربا والعالم، حيث يقول(١):

"... هذا ولم يأت الإنكليز في مصر خطأ علىٰ خطأ، بل أشاعوا في أوربا أننا أمة متعصبة في الدين نبغض المسحيين مما هو ولا شك أشد ضروب الاختلاق...

فلقد مضىٰ علىٰ مصر ثلاثة عشر قرنا ونحن والأقباط فيها إخوة صفاء لا نتكلم بشأن الدين إلا إذا كنا في المسجد أو كانوا في الكنيسة...".

لم يكن إيمان مصطفىٰ كامل وثقته بنفسه وشخصيته لتهوي به في مهاوي الأنانية والغرور، حيث كان يؤمن أن هناك عناصر ودعائم وأسس عديدة لا يمكن لأي أمة أن تنهض وتتقدم بدون الاعتماد عليها، حيث يقول: "البلاد في حاجة إلىٰ رؤوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة... ولذلك يجب علىٰ أغنياء البلاد الذين هم مدينون لمصر... أن يؤسسوا المدارس العديدة علىٰ أساس من الدين القويم والتربية السليمة، وأن يقوم كبار العلماء بنشر الكتب المفيدة، ومهرة الكتاب بإنشاء الصحف الصادقة في خدمة قطر هو أثمن وأغلىٰ الأقطار".

(١) تنظر الخطبة كاملة في كتاب: أوراق مصطفىٰ كامل، ص ٥٨ – ٧٢.

لقد كانت القضية التي تبناها مصطفىٰ كامل من خلال دراسته الحقوق هي قضية وطنه، إذ كانت تمثل له قضية حياة أو موت، قضية نذر نفسه لها حتىٰ أسلم روحه لربه.

يقول الأستاذ فؤاد سليم (باشا)[1]:"إنما الأعمال بالنيات، حياة طيبة أو موت شريف، هذه كانت إحساسات الشاب مصطفىٰ كامل ودواعي سفره.. قاصدًا أوربا، نائبًا عند أهله وأحبابه، مضحيا بنفسه وكل ما تملك يداه في سبيل خدمة وطنه والمرافعة عن حقوقه"

أخلاقه وعبقرتيه:

الأخلاق مهد الوطنية وقوامها، ولا غرو فالوطنية الصادقة لا تتمثل إلا في أصحاب النفوس القويمة، ولقد كان مصطفىٰ كامل نموذجا أخلاقيا قبل أن يكون زعيما وطنيا، حيث كانت زعامته الوطنية تابعة لنشأته الأخلاقية القويمة.

وتتمثل عبقرية مصطفىٰ كامل من خلال إيمانه بربه عزَّ وجلَّ، وإرادته التي لا تكلُّ ولا تملُّ، حيث يمثل الإيمان والإرادة القوة التي تذلل الصعاب، وتأتي بالمعجزات، فاتجهت عبقريته إلىٰ بعث الوطنية من مرقدها، حيث جعل يبعث فيها بعثًا جديدًا من روحه وإرادته التي لا تلين، علىٰ نحو ما يقول في إحدىٰ رسائله إبان سفره إلىٰ أوربا: " لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين وبولونيين ويابانيين فرأيتهم جميعا منكبين علىٰ العلم، ولكني أؤكد لك أن المصري أقواهم عارضة، وأعلاهم ذكاء، ولا ينقصه إلا الإرادة التي هي أُس النجاح".

نتاجه وآثاره:

_ أعجب ما كان في الرق عند الرومان، مطبعة المحروسة ١٣١٠هـ.

(١) المؤيد، عدد ٣١ يوليو ١٩٥٨م.

_ المسألة الشرقية، مطبعة الآداب ١٨٩٨م.

_ أوراق مصطفىٰ كامل: المراسلات (رسائله ومقالاته وأحاديثه الصحفية، د. يواقيم رزق، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.

_ خطب مصطفىٰ كامل، إشراف وتحقيق د. يواقيم رزق، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

_ رواية فتح الأندلس، جريدة المؤيد عدد ١٨ ديسمبر ١٨٩٣م، ومجلة الهلال.

_ الشمس المشرقة، مطبعة اللواء ١٩٠٤م.

_ مصطفىٰ كامل والإنجليز أو (دفاع المصري عن بلاده): خطب مصطفىٰ كامل ومقالاته، جمع جريدة اللواء، تقديم محمد فريد ١٩٠٦م.

صحف ومجلات انشأها مصطفى كامل:

_ المدرسة: أصدر منها تسعة أعداد

_ اللواء: صحيفة يومية أصدرها في يناير ١٩٠٠م.

_ ليتندان إيجبسيان: أصدرها باللغة الفرنسية ١٩٠٧م.

_ ذي استاندرد: أصدرها باللغة الإنجليزية ١٩٠٧م.

_ مجلة العالم الإسلامي: أسبوعية، أصدرها عام ١٩٠٥م.

_ مجلة مصر الفتاة: أصدرها ١٩٠٨م

الفصل الثاني

النزعة الدينية في الخطابة السياسية عند مصطفى كامل

قضايا وموضوعات

أولًا: مصر ليست أمة متعصبة في الدين:

لم تكن النزعة الدينية لدىٰ مصطفىٰ كامل لتمثل أمرًا ثانويًّا، أو أمرًا ذا صوت واهنٍ أمام اهتماماته الوطنية والسياسية، ولا سيما إذا كانت الظروف الواقعية ظروف استضعاف في حال احتلال واعتداء من عدو مستبد متمثل في عدوان الإنجليز..

غير أن مصطفىٰ كامل منذ بداية تخرجه وإنهاء مراحل تعليمه راح يخطب في قلب أوربا في إحدىٰ أعظم حواضرها بفرنسا كاشفًا افتراءات الإنجليز وتُهَمِهم الباطلة بزعم تعصُّب المسلمين ضد المسيحيين في مصر، معلنًا أننا أمة كريمة متسامحة، علىٰ نحو ما قال في خطبته التي ألقاها بطولوز بفرنسا في ٤ يوليو ١٨٩٥م[1]:

"لم يأتِ الانكليز في مصر خطأ علىٰ خطأ فقط، بل أشاعوا في أوروبا أننا أمة متعصبة في الدين، نبغض المسيحيين مما هو ولا شك أشد ضروب الاختلاق، فإننا لسنا متعصبين ولا مبغضين للمسيحيين، بل نحن أمة هادئة كريمة والبراهين علىٰ ذلك لا يمكن نقضها".

وهو لا يكتفىٰ بمجرد كشف تلك الافتراءات ووصفها بأنها أسوأ ما ارتكبه الإنجليز من أخطاء، وفي هذا من الإكبار والإجلال للدين القيم ما فيه، علىٰ أنه

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: د. يواقيم رزق، ص٦٨.

يدحض تلك الافتراءات والمزاعم بالدليل الواقعي من خلال تعايش المسلمين والأقباط في مصر إخوة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، حيث يقول(١):

"لقد مضىٰ علىٰ مصر ثلاثة عشر قرنًا نحن والأقباط فيها إخوة صفاء، لا نتكلم بشأن الدين إلا إذا كنا في المسجد أو كانوا في الكنيسة، ثم صرنا في هذا القرن الواسطة بين أوروبا المتمدنة وأفريقيا..."

وهو كذلك لا يكتفي ببيان سماحة المسلمين مع إخوانهم المسيحيين في مصر، بل هو يكشف عن سماحتهم مع الأجانب من الأوربيين الذين خالطوا المصريين من مختلف ربوع مصر الآمنة مع مختلف فئات المصريين حتىٰ ولو كانوا فلاحين لم ينالوا حظًّا من التعليم، وما ذاك إلا لأنتا -بصفة عامة- أمة خير كريمة متسامحة، لا أمة شر وافتراءات واعتداءات علىٰ نحو ما أعلنه مقرِّرًا ومستنكرًا في خطبته بقوله(٢):

"وقد خالطنا الأوربيين عامة والفرنساويين خاصة كل هذا القرن فلم يظهر منا عداء لأي إنسان، ولدينا الأوربيين يسكنون كل النواحي والوديان السحيقة من القطر، وكثيرون منهم منتشرون في القرىٰ الريفية الصغيرة بين أكثر الفلاحين جهلًا وهم في سكينة وطمأنينة بال، وما ذلك إلا لأن أمتنا تحترم الأجانب إلىٰ حد تعتبرهم معه كأعز ضيوفها.

فكيف يمكن أن تكون أمة كهذه متعصبة في الدين؟.... بل كيف يمكن أن تكون هذه الأمة الهادئة الحكيمة متعصبة في الدين وعلىٰ رأس هيئة حكومتها من ليس متدينًا بدينها؟"

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: د. يواقيم رزق: ص ٦٨.

(٢) السابق نفسه ص ٦٩.

لم يكن مصطفىٰ كامل بطبيعته الحماسية وأنفته المصرية ليقبل أن يظل محصورًا في نطاق الدفاع ونَفْي التهم والإشاعات الباطلة، ولذا فقد تحوَّل إلىٰ القيام بدور من يتهم بالحق لا بالباطل، -علىٰ طريقة داوني بالتي كانت هي الداء- إذ يتهم الإنجليز بأنهم هم المتعصبون المبغِضون المسيئون لديننا السمح ونبينا الكريم، علىٰ أن سكوتنا لم يكن من قبيل الضعف، ولكن من قبيل الاعتدال، علىٰ نحو ما يقول[1]:

"وقد بلغ سكوتنا حدًّا حمل أعداءنا علىٰ أن يَسبُّونا كثيرًا، وَيسبُّوا ديننا ونبينا من غير أن يروا منا نزعة عداء لهم، وليس ذلك عن ضعف منا أو استماتة، بل عن اعتدال وغفران".

وإذا كان الإنجليز في تهمهم قد جاءت تُهَمُهم مرسلة لا تنهض علىٰ دليل، فإن مصطفىٰ يكشف خطاياهم ويفضحهم من خلال ما هو مسجل عليهم، وما اقترفوه بأيديهم من خلال ما نشروه في كتب التاريخ الذي قاموا بتزييفه بين تلامذة مدارسنا باللغة الإنجليزية..

علىٰ أن مصطفىٰ كامل في نزعته الدينية وغيرته التي تتحلىٰ بالمنطق والدليل وإقامة الحجة والبرهان لم يكن ليقوم بذلك من باب التفرد لما يتمتع به من إمكانات معينة، بل هو يعي تمام الوعي أنه يقوم بالدور الذي يمكنه ذاكرًا ومقدِّرًا أجلَّ تقدير وتوقير دور الأزهر الشريف ومجلس علمائه الحكيم معلنًا أنهم رؤساء الديانة، حيث قاموا بالرد علىٰ تلك المزاعم والافتراءات والإساءات بحكمة لا تحيد عن الاعتدال والتسامح واحترام كل المذاهب والديانات، علىٰ نحو ما يقول[2]:

(١)أوراق مصطفىٰ كامل: د. يواقيم رزق: ص ٦٩.

(٢)السابق نفسه ص ٦٩.

"لقد نشر الإنكليز في العام الماضي بين تلامذة مدارسنا كتب تاريخ باللغة الإنكليزية وفيها الطعن علىٰ ديننا، والتمثيل «بنبينا» وفي هذا العام نشر المستظلون بالعلَم البريطاني في مصر رسالة ضد الإسلام يدعون فيها المسلمين إلىٰ اعتناق ديانة غير ديانتهم، وقد أرادوا ولاشك بنشر هذه الرسالة إحداث ثورة دينية في القطر، ولكنهم لم يفلحوا؛ لأن الأمة قابلتها بحكمة عجيبة، ومجلس علماء الأزهر الذين هم رؤساء الديانة أجاب علىٰ هذه الرسالة في خطاب بعث به الىٰ ناظر الداخلية بقوله: «ان الديانة الإسلامية تعلم معتنقيها احترام كل المذاهب وجميع الديانات، وأن الاعتدال والتسامح من قواعدها الأساسية» .

ومصطفىٰ كامل إذ يقرر تسامح المصريين، وسماحة الإسلام الحنيف، وحكمة الأزهر الشريف، فإنه يؤكد أن ذلك التسامح وتلك الحكمة لم تكن عن ضعف، وإنما عن جلد وقدرة علىٰ التحلي بالصبر غير أن ذلك لا بد أن يكون له حدٌّ تجاه تلك الخرافات والاعتداءات التي يمقتها المصريون بأعلىٰ صوت وبكل ما أُوتوا من قوة؛ كي يخلصوا منها ومن الاحتلال بكل سوآته، علىٰ نحو ما يتمثل في قول مصطفىٰ كامل[1]:

"لم تكن أية أمة قادرة علىٰ التمسك بعروة الحكمة والصبر بمثل ما تظاهرت به الأمة المصرية. فإذا كان أعداؤنا لايزالون يقولون عنا بعد ذلك: إننا متعصبون في الدين، فقد جاء الوقت الذي يجب أن يُقضَىٰ فيه علىٰ هذه الأساطير الممقوتة؛ فإننا لسنا مبغضين للأوربيين ولا لأي شعب من الشعوب، ولكننا مبغِضون حقًّا للاحتلال الإنكليزي، ونقول.... نحن ننتظر خلاصنا من إنكلترا نفسها".

(١)أوراق مصطفىٰ كامل: د. يواقيم رزق: ص ٧٠.

ثانيًا: مصر ليست أمة متعصبة ضد المدنية الغربية:

افتراء آخر مقترن بالافتراء السابق الذي روجت له إنجلترا بشأن تعصُّب المصريين ضد المسيحيين، حيث راحت تشيع في سياق آخر تعصب مصر ومعاداتها المدينة الغربية.

وكما هي طبيعة مصطفىٰ كامل من يقظة وغَيرة وحماسة، فقد انبري لمواجهة تلك الإشاعات بتكذيبها وإبطالها بحجج تاريخية وأخرىٰ واقعية، حيث شرع يؤكد أن التاريخ شاهد أمين علىٰ مدىٰ ما تتمتع به الأمة المصرية علىٰ مر التاريخ من تحضُّر ومكارم وحرية يشهد بها الأجانب أنفسهم علىٰ مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وما أمْرُ تجارات الأجانب المخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية ببعيدبل وصل الأمر بسماحة أهل الإسلام أن تَرأَّس "نوبار باشا" وهو أرمني مسيحي أعظم احتفال إسلامي بمناسبة إعداد الكسوة الشريفة للكعبة المشرفة..

يقول مصطفىٰ كامل في خطبة ألقاها بباريس يوم ١١ ديسمبر ١٩٨٥م[1]:

"إذا كانت هناك إشاعة يجب القضاء عليها، فهي ولا شك إشاعة التعصب المزعوم الذي يزعمون وجوده بين المصريين، فإن الإنكليز يريدون أن يمثلونا في أوروبا أمة متعصبة، أي معادية للمدنية الغربية. الأمر الذي يكذبه كل تاريخنا؛ فان مبدأنا هو «أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا»..

ولم نقابل الأجنبي إلا بالاحترام والترحاب، وكل الأمم تتاجر عندنا بكل راحة وسلام، وكلهم

(١) تنظر الخطبة في كتاب أوراق مصطفىٰ كامل: ٧٧ – ٩٥.

مادحون خطتنا، وكثير من اليونانيين يسكنون القرىٰ وتجارتهم: المسكرات والتسليف بالأرباح، تجارتان كلتاهما تمنعها الشريعة الإسلامية، ومع ذلك فلم يلاقوا اعتراضًا، ولم يعتدِ عليهم أحد ما.

ولقد ترأَّس في العام الماضي نوبار باشا الذي هو أرمني مسيحي... علىٰ أعظم حفلة دينية لنا، حفلة الكسوة الشريفة والجموع ترمق الاحتفال بعين البشر والاحترام".

لم يكن مصطفىٰ كامل ليكتفي بالرد علىٰ تلك الافتراءات والإشاعات المعتادة من قبل الإنجليز، حيث طفق يفضح أكاذيب أشهر صُحُفهم "التيمس" إذ يسجل تكذيب الواقع أخبارَها، كما هي عادة أهلها، إذ هم يكذبون أنفسهم في كل مرة، علىٰ نحو ما يقول:

"والتيمس الذي هو أعدىٰ الجرائد لنا أنذر العام الماضي بحدوث ثورة في الإسكندرية في شهر رمضان، ولقد انقضىٰ طول شهر رمضان دون أن تحصل مشاجرة واحدة. والآن ها هو التيمس يكذب نفسه بنفسه، إذ نشر أخيرًا.... إن المصريين ليسوا متعصبين في الدين، وإن الأمثلة الدالة علىٰ كرمنا وجودنا لا تعد، وجرائد الإنكليز أنفسها تعترف بذلك عندما تريد إثبات قضاياها؛ فهي تدَّعىٰ أن الفلاح يحب الاحتلال...".

وفي سبيل معالجته قضية أو فرية اتهام مصر بالتعصب الديني ضد المسيحية، وضد المدنية الغربية فإن مصطفىٰ كامل لا ينطلق من رؤية ضيقة معتمة، وإنما هو ينطلق من رؤية شمولية جلية تعبِّر عن الإسلام الذي تَدين مصر برحابته و سماحته التي يعتز بها مصطفىٰ كل الاعتزاز، كما يعتز بما تمثله مصر للإسلام وأهله لكونها

مركز إشعاع للعالم الإنساني، واحتفال طلاب العلم في رحاب أزهرها الشريف، علىٰ نحو ما يتمثل في قوله(١):

"ليست فرنسا وانكلترا هما الدولتان الوحيدتان الواقفتان في مسألة مصر، بل هناك عالَمان أمام بعضهما: العالَم الإسلامي، والعالم النصراني؛ فما مسألة مصر إلا مسألة الإسلام كله: وتَرْك مصر لإنكلترا استعباد هذه الدولة للإسلام كله؛ فمصر بموقعها الاستثنائي أصبحت مركز العالم الإسلامي وملتقىٰ المسلمين كافة.... فالطلبة تفد عليها من الشرق كله".

ثالثًا: الدين والوطنية لا يتنافيان:

العلاقة بين الدين والوطن علاقة تكاملية، وليست علاقة تقابلية أو عدوانية، فإذا كانت الأرض هي الوطن الكبير للإنسان منذ أخبر الخالق جلَّ وعلا ملائكته باستخلافه الإنسان في الأرض بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢).

فإن هذا الاستخلاف يعد دينًا وتشريفًا ذا حدود ومسؤوليات، وحقوق وواجبات، حيث قرر الخالق سبحانه تكامل هذه العلاقة، إذ أنشأ خليفة الأرض من طينها، تم جعل هذا الذي أنشأه من طينها هو من يعمل علىٰ عمارتها، حيث قال سبحانه: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٣).

ولذا كان واجبًا علىٰ الإنسان أن يحافظ علىٰ (الوطن) ويدافع عنه بكل ما ملَّكه الله، إذ إن (الدين) من خلال فقهائه يقرر أن الدفاع عن الوطن والمواطنين فريضة حال الاعتداء عليه، حيث يتعين علىٰ أهله جميعًا الرجال والنساء، والكبار

(١) تنظر الخطبة في كتاب أوراق مصطفىٰ كامل: ٧٧ – ٩٥.

(٢) سورة البقرة، آية ٣٠.

(٣) سورة هود، آية ٦١.

والصغار، المسلحين وغيرهم الدفاع عن وطنهم كلٌّ حسب استطاعته ومكنته حتىٰ لو فنوا جميعا..قال تعالىٰ:: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(١).

إن الدين هو أساس عمار الوطن، ومصدر كل خير وأمان علىٰ أسس راشدة، كما أن الوطن هو صمام الأمان للدين من أن يُنال من أي معتدٍ، وما حديث اقتحام الفرنسيين أروقة الأزهر الشريف بخيول الاعتداء في العصر الحديث ببعيد.

وعدم فهم الدين ومقاصده وغاياته السامية قد يؤدي إلىٰ خلل في إدراك صحيح علاقة الدين بالوطن، إذ إن التدين الحقيقي يعمل لمصلحة الوطن؛ ذلك أن جوهر الدين يقتضي أنه حيثما تكون المصلحة فثم شرع الله.

ولو لم يكن الدفاع عن الوطن مقصدًا من أهم مقاصد الدين لكان لمواطنيه أن يتركوا الوطن حال الاعتداء عليه طلبًا للنجاة بأنفسهم ودينهم..

- يقول مصطفىٰ كامل في خطبة ألقاها بالإسكندرية فىٰ ٢ يونيو ١٩٠٠م(٢):

"قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية، أو أن الدعوة إلىٰ الدين ليست من الوطنية في شيء.

ولكني أرىٰ أن الدين والوطنية توءمان متلازمان، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبًّا صادقًا، ويفديه بروحه وما تملك يداه".

وإذا كان الأسلوب الخبري في العبارة السابقة قد صُدِّر بكلمة (قد) التي تُحمَل علىٰ كونها تحقيقية، حيث تقرر أن مصطفىٰ كامل كان يقصد بذلك في خطبته "الرد علىٰ حملات الصحف الأوربية علىٰ الإسلام"(٣).

---

(١) سورة الأنفال، آية ٦٠.

(٢) تنظر الخطبة في كتاب أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٢٩، ٢٣٠.

(٣) السابق نفسه: هامش ص ٢٣٠.

وقد تُحمَل كلمة (قد) علىٰ كونها تقليلية بمعنىٰ أن الظانين ذلك الظن هم قلة من الأدعياء لغرض أو مرض في قلوبهم ونفوسهم، غير أن أمرهم علىٰ خطر عظيم، ولذا يجب أن يُراجَع ذلك الأمر ويؤخَذ مأخذ الجد، إذ إن المواطن الذي يتمكن الدين من فؤاده هو من يكون أشد حبًّا لوطنه في حال الرخاء، وهو من يضحي في سبيله بنفسه وكل ما ملكت يداه دفاعًا عنه في حال الاعتداء.

ولذا فإن مصطفى كامل يضرب صفحًا عن ذلك اللغو بأن الدين ينافي الوطنية معلنا رأيه ومقررا أنه:

_ لا منافاة بين الدين والوطن، بل إن علاقتهما تكاملية تلازمية.

_ الدين مصدر لارتباط المواطن بوطنه ارتباطًا فطريًّا محببًا صادقًا.

_ الدين لا يجعل المواطن يحب وطنه فحسب، بل يفديه بروحه وما تملك يداه.

لقد صدح مصطفىٰ كامل برأيه دون تردُّد أو مواربة، وهذا يجلي مدىٰ ما يتمتع به من نزعة دينية راسخة رغم ما يضطلع به من مهام وطنية وسياسية في غاية الصعوبة.

وإذا كانت الحكمة تقول: " والحق ما شهدت به الأعداء أو الأجانب، لا الأهل أو الأقارب" فإن مصطفىٰ كامل يستعين في التدليل علىٰ رأيه ببعض المواقف الأجنبية نافيًا بذلك عن نفسه وعن سلفنا الصادق في دينه ووطنيته بالمقولة التاريخية ل "بسمارك" أكبر ساسة أوربا في العصر الحديث، إذ يهتف في أسماع التاريخ بأنه لن تكون للوطن محبة في قلب المواطن إلا إذا كانت محبة العقيدة تسكنه علىٰ نحو ما يقول[1]:

" ولستُ معتمدًا علىٰ أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة، ولكني أستشهد علىٰ صحة هذا المبدأ بحكمة "بسمارك" أكبر ساسة هذا العصر وخير رجل خدم بلاده ورفع شأنها؛ فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلىٰ صوته: لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم محبة الوطن معها"

(١) تنظر الخطبة في كتاب أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٢٩، ٢٣٠.

إنه بهذا يدعو، بل يعمل علىٰ بث روح الوطنية الحقة المستقيمة علىٰ أعلىٰ درجة من المسؤولية والعمل بكل السبل من أجل رفعه الوطن ودفعه إلىٰ الأمام، والعمل علىٰ خلاصه ونصرته بالتضحية في سبيله بمنتهىٰ الإقدام، إذ إن الوطنية الحقة إذا تحققت لدىٰ أبناء الأمة كان ذلك خير مداد لكي تحيا الأمة أبدًا قوية أبية بالوطنيين الأقوياء، إذ يستقيم ضمير كل وطني أمام مختلف عقابيل وسياسات كل الأعداء والعملاء، علىٰ نحو ما يقول[١]:

" إن أمة دبت فيها روح الوطنية، وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبدًا، وإن صواعق السياسة كلها لا تحوِّل ضميرًا واحدًا لاذ بالوطنية عن وجهته".

إن الوطنية إذا استقامت منابعها، واكتملت عناصرها لدىٰ المواطنين صارت شعورًا يسري في النفس وينمو في القلب، حيث تغدو الوطنية عماد الأمة علىٰ أسس ودعائم قويمة لا تهزها العواصف، والوطنية كذلك تعد أم المعجزات؛ إذ هي الروح التي تسري في نفوس أبناء الأمة كي ينهضوا بأمتهم مهما تكن الآلام من أجل تحقيق الآمال والأهداف والغايات، علىٰ نحو ما يقول مصوِّرًا الوطنية في تدفق وحيوية في خطبته في ذكرىٰ العيد المئوي لمحمد علىٰ في ٢١ مايو ١٩٠٢م[٢]:

" الوطنية هي العماد لكل مملكة، والأساس المتين لكل دولة.

الوطنية هي الروح العامة في كل بلاد العالم المتمدن.

الوطنية هي أم المعجزات، وأمل كل تقدم وارتقاء.

الوطنية هي التي تنقل الشعب الجيلي إلىٰ التقدم والحضارة والعمران

الوطنية هي الدم في عروق الأمم والحياة لكل ذي حياة.

الوطنية هي الغذاء الذي يحتاج إليه جسم مصر قبل كل غذاء".

---

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٤٨٠.

(٢) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٥٣.

هكذا تتجلىٰ الوطنية الحقة لدىٰ مصطفىٰ كامل في صورها المفعمة بقوة العزيمة والتحدي والإصرار دون أن يخشىٰ الوطني الحق شيئًا في الوجود، وذلك حيث يقول(١): " وما دامت هذه الشعلة الوطنية تغذيني وتؤازرني، فإني لا أهاب شيئًا ولا أحدًا في الوجود".

رابعاً: الوطنية مسؤولية الجميع ولا سيما المتعلمين:

التعليم هو قاطرة أي أمة نحو التقدم، وهو السبيل لمواجهة أي تخلف أو جهل أو ضعف أو تعثر، وطلاب العلم هم أمل الأمة لتجاوز ذلك كله والتبشير بمستقبل واعد من خلال قيام الجميع بمسؤولياتهم خير قيام تجاه الوطن العزيز علىٰ نحو ما يقول مصطفىٰ كامل في خطبة بالأزبكية نظمها طلاب المدارس:

"أقدر عنايتكم بدعوتي حق قدرها ولطالما تمنيت أن أقضي بضع ساعات مع نخبة المدارس المصرية، وأناجي أولئك الذين خرجتُ من صفوفهم وما نسيتُ عهودهم، وأتحدث معكم يا مستقبل مصر ورجاءها المنتظر في ذلك الواجب العظيم الذي يجب علينا جميعًا أن نقوم به حق القيام، وأعني به الوطن العزيز"(٢).

إن الوطنية في تقدير مصطفىٰ كامل هي أشرف الروابط بين الأفراد والأوطان وأقوىٰ الأسس التي تنهض عليها الأمم الشامخة والتاريخ خير شاهد علىٰ ما أسدته الوطنية للإنسانية من خير وعمران وتحضر ومجد وتقدم ومدنية.

والوطنية كذلك شرف يقتضي من جميع أبناء مصر: المتعلمين منهم وغيرهم أن يقدِّروا كل التقدير كل هبات الخالق العظيم وطنهم العزيز من هبات عظيمة لم يهبها لسائر بلاد العالمين مما يوجب عليهم أن يحفظوا لها كل حقوقها، ويؤدوا علىٰ خير وجه واجباتها، ويضطلعوا بكامل مسؤولياتهم من أجل حريتها واستقلالها وتميزها قمة شامخة ببن الأمم علىٰ نحو ما يقول(٣):

---

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل، ص٤٢٤.

(٢) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ١٢٤.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

"إن الوطنية هي أشرف الروابط للأفراد، والأساس المتين الذي تُبنَىٰ عليه الدول القوية والممالك الشامخة، وكل ماترونه في أوروبا من آثار العمران والمدنية، ما هو إلا ثمار الوطنية.

أصبح اليوم الوطن المصري ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلًا وإنصافًا، أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها إلىٰ منصة الحرية والاستقلال، وأن تردوا إليها حقوقًا وهبها إياها الخالق عز وجل.

ولاريب أنكم معشر المتعلمين، معشر النابغين في المعارف والآداب، أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية، فإنكم قرأتم في التاريخ الأمثال الكثيرة للوطنية، وعرفتم سِيَر ناس عديدين ماتوا محبةً لبلادهم وإخلاصًا لأوطانهم، فحيوا بموتهم، وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال، وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه".

والوطنية عند مصطفىٰ كامل لا تمييز فيها بين مختلف فئات الوطن، وكأني به يذكرنا بمنهج الرسول الكريم ﷺ معلم الناس الخير أن نصرة الأوطان والأمم لا تقتصر علىٰ الاصحاء، وذلك علىٰ نحو ما تمثل حين جاءه عمرُو بن الجموح يبتغي أن يؤذن له بالجهاد يوم أُحُد – وكان قد مُنع يوم بدر– فلما أجابه الرسول ﷺ أن مَنْ قُتِل اليوم دخل الجنة؟ قال: "والَّذي نفسي بيدِه لا أرجِعُ إلىٰ أهلي حتَّىٰ أدخل الجنة، فقال له عمر بن الخطاب: يا عمرُو لا تألّ (تحلف) علىٰ الله، فقال رسول الله ﷺ: مَهلاً يا عمر؛ فإنَّ منهم مَن لو أقسَم علىٰ اللهِ لَأبَرَّه: منهم عمرو بن الجموح، يخوضُ في الجنَّةِ بعَرْجَتِه)[1].

(١) حديث نبوي شريف رواه ابن حبان في صحيحه.

يقول مصطفىٰ كامل[1]:

"إنكم إذا خرجتم من المدارس، ودخلتم صفوف الرجال، وشرع أحدكم في عمل من الأعمال سمع لا محالة من قوم غايتهم تثبيط الهمم وإقعاد العزائم: من أنت حتىٰ تعمل هذا العمل؟ وإذا كان الأغنياء والكبراء لم يُقدِموا عليه، فكيف تُقدِم أنت عليه؟ وهو قول فاسد؛ لأن الوطنية لا تمييز فيها بين الصغير والكبير، والغني والفقير، بل كلنا سواء أمام مصر، وكل واحد منا مسؤول عن مصائبها مطالب بخدمتها وإعلاء قدرها".

ثم يقول ضاربًا الأمثلة بكبار الوطنيين الذين خرجوا من صفوف الفقراء: "قد يكون الرجل الصادق الوطنية فقيرًا في المال، ولكنه يعيش ويبقىٰ في التاريخ من أكبر سراة الوطنية".

يلح مصطفىٰ كامل علىٰ فكرة تقدير كل المواطنين، وعدم استصغار أي مواطن أو احتقاره، والاعتداد بأن كل مواطن لديه من المقومات ما يمكن أن يجعله ينهض بجلائل الأعمال، وتحمل مسؤولياته الوطنية، ولإيمانه الراسخ بهذا النهج الكريم تأسيًّا بخير البشر سيدنا محمد ﷺ، إذ يقول ﷺ: "المؤمِنونَ تتكافَأُ دماؤُهمْ، وهُم يدٌ علىٰ مَن سِواهمْ، ويسعىٰ بذمَّتِهِم أدناهُم"[2].

يقول مصطفىٰ كامل[3]: " لا يرين أحدكم نفسه صغيرًا، فيقول: ومن أنا حتىٰ أدافع عن بلادي وأطالب بحريتها وأسعىٰ لسعادتها؟ فذلك فكر خطأ؛ فكل مصري مسؤول عن حالة مصر، ولكل مصري الحق في خدمتها، بل عليه واجب إنهاضها

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ١٢٤، ١٢٥.

(٢) حديث نبوي شريف، رواه أبو داود.

(٣) الرافعي: مصطفىٰ كامل، ص ١١٧، ١١٨.

وإعلاء شأنها، وجميع المصريين أمام مصر سواء، وحنانها لكل فرد من أبنائها لا ينقص عن حنانها للآخرين، وقد جاءنا التاريخ بالأمثال العديدة علىٰ قيام أفراد من آخر طبقات الشعب بأكبر الأعمال وأشرفها، وأرانا التاريخ فتاة (هي جان دارك) قد حررت فرنسا وطنها، وأخرجت الإنجليز من ربوعه، وهذا (كوشوت) محرر المجر بدأ صغيرًا لا مقام في بلاده ولا مكانة، ولكن وطنيته الطاهرة، وفؤاده المتقد غيرة علىٰ وطنه، وخلوه من الغرض الشخصي، جعلة في تاريخ بلاده وفي تاريخ الألم رجلًا من عظماء الرجال، وقدوة كبيرة في تحرير الأوطان، والتاريخ مملوء بذكر الرجال الذين نهضوا من الطبقات الفقيرة إلىٰ أسمىٰ المراتب بوطنيتهم الصادقة وإحساساتهم السامية".

إن قضية الوطن عند مصطفىٰ كامل ليست قضية أفراد أو فئات، او حتىٰ زعامات أو رئاسات، ولكنها قضية حق الوطن، والوطنية الحقة تقتضي نصرة الوطن بالحق حتىٰ ولو كانت نصرته يسعىٰ إليها ويقوم بها أدنىٰ أفراد الوطن؛ إذ إن نصرة الحق بها ينتصر الوطن، وبخذلان الحق يخذل الوطن..

خامسًا: السياسة في خدمة الوطن، والتاريخ شاهد على سمو سياسة الإسلام:

في أول اجتماع لإنشاء الحزب الوطني في ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧م. وهو حزب سياسي انتُخِب مصطفىٰ كامل زعيمًا له مدىٰ الحياة، تلك الحياة التي لم تطل بعد هذا الاجتماع أكثر من ٤٤ يومًا من عمر لم يتجاوز ٣٤عامًا تلك الحياة التي جاد بها من أجل أمته علىٰ نحو ما يقول[١]:

" أوقفت لخدمتها حياتي وقواي وعقلي وقلبي ولساني وصحتي، وكم من صديق قال لي: أشفق علىٰ صحتك التي لا تدخر وسعًا في بذلها، ولكن الواجب لبلادي ووطني ينسيني تلك النصائح.

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٢٦٩.

فأنا الآن إذا قبلت اختياركم لي رئيسًا فإنما هو لثقتي بأن كل واحد منكم أصبح حياتي وشعوري واعتمادي، بل صار كل منكم في الشعور الوطني أكبر من مصطفىٰ كامل".

إن السياسة _وكذلك السياسي_ إذا كانت علىٰ النحو الذي تمثل في النموذج السابق، فإنها لا تكون كما يشاع عنها، ولا تكون في حقيقتها كما يمارسها كثير من الناس علىٰ أنها فن الممكن بما يعني أن السياسي يمكنه أن يقوم بعمل أيشيء في سبيل الوصول إلىٰ هدفه وغايته مهما تكن الوسيلة..

علىٰ أن السياسة لدىٰ مصطفىٰ كامل في رئاسته لحزب سياسي هي خدمة لأمته علىٰ مدار حياته السياسية بكل ما يملك من قوىٰ ومؤهلات مادية وفكرية بسخاء، ولا يتمثل ذلك لدىٰ أكبر السياسيين في الحزب فحسب، وإنما يتمثل ذلك من خلال الشعور الوطني الأكبر الذي يجعل من كل الأفراد في انتماءاتهم السياسية لوطنهم أفرادًا يبدو كل منهم في نظر الرئيس أكبر من الرئيس، وذلك حيث يقول:

" إننا لسنا حزبًا سياسيًّا فقط، بل نحن قبل كل شيء حزب حياة للأمة وإنهاض لها، فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة، وهو يرمي إلىٰ الاستقلال أس كل سعادة، ويعمل لنشر التعليم حتىٰ لا يبقىٰ مصري جاهلًا تحت سماء مصر، ويسعىٰ للوفاق بين الأمة، وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرىٰ، وهو يرمي قبل كل شيء إلىٰ يكون المصري إنسانًا بأسمىٰ معاني الكلمة، وأقصد بالمصري ليس فقط ذلك الذي نزاه في المدائن يجدُّ ويعمل، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذي قضىٰ القرون من السنين وهو يعتقد أنه مِلْك للحاكم ومتاع لا إرادة له، فأسمىٰ عمل نقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وإعلاء مكانته؛ فهو ممثل النشاط المصري، ومصدر كل خير ونعيم.

فليحي عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقىٰ أثقال القرون الماضية، وصار رجلًا حرًّا بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين في سبيل حريته وسعادته.

إن السياسة سبيل ليقظة الوطن وخدمته علىٰ كل المستويات بدءًا بالتعليم الذي يعد قاطرة الأمة كىٰ تتقدم إلىٰ مصاف الأمم المتقدمة، وبلوغًا إلىٰ تحقيق الاستقلال الذي هو سبيل عزة الوطن ورفعته وسعادة أفراده.

كما أن التعليم فضلًا عما سبق –من خلال العمل علىٰ تطويره– يرتقي بالمواطن إلىٰ أسمىٰ معاني الإنسانية، إذ يعمل علىٰ تقدير أشقىٰ طبقات المجتمع متمثلة في الفلَّاح الذي عاش – بكل أسف – قرونًا طويلة كما لو كان مملوكًا لحاكمه.

وهنا تبدو السياسة عملًا نبيلًا، إذ تعترف بقيمة الفلاح الذي يعد مصدر رخاء المجتمع وهناءته، حيث تبادله السياسية بما قدمه للوطن التقدير والكرامة والعمل علىٰ سعادته..[١]

والسياسة بهذا ليست إعجابًا، ولا تمجيدًا للسياسيين، وإنما هي وعي وحسن تقدير للأمور بحكمة وبصيرة، وحسن تعامل: قولًا صادقًا صريحًا، وعملًا نافعًا مخلصًا من أجل أن يحيا الوطن وأهله في عزة وكرامة ووعْي، علىٰ نحو ما تمثل في الخطبة التي ألقاها مصطفىٰ كامل أول أكتوبر ١٩٠٠م في احتفال أقيم بمدرسته تكريمًا لنوابغ التلاميذ، حيث يقول[٢]:

" ولست الآن واقفًا أمامكم موقف المتباهي بعمله المعجب بصنعه، ولكني واقف موقف الخادم لأمته المفدِي نفعها براحته، فقد أسستُ هذه المدرسة غير

(١)الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٢٦٨.

(٢) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ١٥٨.

مفكر في صعوبة العمل.. غير نلتفت إلىٰ أقوال المثبطين للهمم المميتين للعزائم، ونهضتُ بها مدفوعًا باعتقاد تَمَلك فؤادي، وهو أن كل فرد في هذه الأمة مطالب بخدمتها مهما قصر الآخرون، وسِرتُ في طريقي هذا معتمدًا علىٰ فاطر الأرض والسماء، نصير العاملين، وعون المجتهدين".

إن السياسة الحقة لا تقوم علىٰ الغش والكذب والخيانة، ولذا فإن مصطفىٰ كامل يحذر من خطورة ذلك وأضراره، ولا سيما إذا كان من أبناء الوطن الذين يفخِّم بعضهم شأن أعدائه، إذ يصدقون أكاذيبهم، والطامة الكبرىٰ أنهم يروجون لذلك علىٰ أنه عين الصدق والخير مع علمهم بأنهم يكذبون، وهم بهذا يخدعون وطنهم وأهلهم، ويخونون الله ورسوله ﷺ ويخونون أنفسهم، كما أنهم بهذا يعدون حربًا علىٰ وطنهم في واقعه ومستقبله.

والسياسة الحقة تكشف ذلك كله وتفضحه، وتحذر من خطره وضرره، ولذا فإن مصطفىٰ كامل بوصفه سياسيًّا وطنيًّا حقيقيًّا مُحِقًّا يذكِّر بكلمة الحق الجامعة لرسول الله بالحق، إذ يقول: " من غشنا فليس منا "[1].

يقول مصطفىٰ كامل[2]:

"إن الأسىٰ والضرر لا يمكن أن يصيبنا إلا من إخواننا في الوطن الذين يخونون وطنهم، والذين ينشرون اتهامات الأعداء ويفخمونها مع علمهم اليقين أنهم يكذبون، يخونون، وأنهم خارج الوطن، وأنهم يخدعون الوطن والمواطنين، وأنهم يحاربونهم في أعز آمالهم.

(١) حديث نبوي شريف، أخرجه مسلم برواية أبي هريرة.

(٢) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٣٤١.

تعرفوا عليهم، وأدركوا أنهم في مقدمة أعداء وطننا، وتذكروا تلك العبارة التي قالها النبي ﷺ: "من غشنا، فليس منا".

علىٰ أن السياسة ليست خيرًا كلها؛ فقد تبين من قبل أنها فيها أكاذيب وغش وخداع وخيانة، وفيها إضافة إلىٰ ما سبق تكتلات وتعصبات لدىٰ طوائف من السياسيين من ذوي النفوذ المتسلطنين والمتسلطين بظلم وسلب وضغط وإرهاب فضلًا عن التعالي واحتقار الآخرين..

وإدراك ما يدور في دهاليز السياسة التي تكون علىٰ هذه الشاكلة أمر من الأهمية بمكان؛ إذ إن من ضروب السياسة التي يجب كشفها والتنبه إلي خبيث بذورها وعقابيلها، ووخيم عواقبها، وشر ثمارها: سياسة التفكك التي دائمًا ما يلجأ إليها أعداء الوطن بممارستها علىٰ كل المستويات لعلمهم أنهم – مهما كانت قواهم – فلا قِبَل لهم بقوىٰ الإيمان؛ لأنها قوىٰ الحق التي وعدها الله بالنصر ،قال تعالىٰ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾[1].

والتاريخ شاهد علىٰ أن الأعداء والاحتلال لم ينالوا من الوطن بقواتهم، وإنما بعمالة وخيانة من ساسوهم فعاونوهم وأعانوهم من جانب، وأحدثوا شقاقًا واختلافًا ونزاعًا في صفوف الوطن من جوانب أخرىٰ رغم تحذير القوي المتين من ذلك بقوله الحكيم[2]: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾

(١) سورة الأنفال، آية ٨.

(٢) سورة الأنفال، آية ٤٦.

يقول مصطفىٰ كامل[1]:

"إنه لمن الغريب حقا أن يوجد مناصرون لتلك السياسة، سياسة التفكك... هؤلاء المناصرون الذين لا يكفون عن أن يلقنوننا ليلًا ونهارًا أن الإنجليز هم الأقوياء ونحن الضعفاء... وأنه يجب علينا أن نطيعهم في كل ما يفرضونه علينا...

هذه هي التغريرات، ونحن سعداء بملاحظاتنا أن الذين يفضلونهم علينا أقلية، وأن الإنجليز لم يستولوا علىٰ أي شيء في مصر بالقوة، ولكن بمحض إرادة الحكومة المصرية..."

إن السياسيين إذا صفت نفوسهم وصدقت نواياهم واستقامت وجهتهم في العمل السياسي من أجل خدمة الوطن تسنموا قمة الشرف في حاضرهم، إذ يصلونه بأمجاد حضارة أجدادهم الفرعونية القديمة، وحضارة الإسلام المتجددة الخالدة.

ولذا فإن مصطفىٰ كامل بِحسِّه السياسي الوطني الصادق السامق يهتف في أسماع الوطنيين والسياسيين الشرفاء أن يأخذوا حذرهم في كل حال، وألا يسمعوا أو يستجيبوا للإشاعات والوشايات، وأن يوحدوا الصفوف والجبهات صفًّا واحدًا وجبهةً واحدةً استمدادًا من القول المقدس عمن يجاهدون ويقاتلون بالحق في سبيل الله[2]: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ وذلك لينصروا حقهم المقدس كي تحيا مصر حرة عزيزة مستقلة..

(1) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٣٤٣.

(2) سورة الصف، آية ٤.

يقول مصطفىٰ كامل[١]: " اتحدوا ووحدوا صفوفكم، وخذوا حذركم، وليكن كل منكم الحزب كله، وليكن الجميع جبهة واحدة!

ثم صُمُّوا آذانكم عن الوشايات، واعلموا أنكم صانعوا أشرف عمل في خدمة أعظم وأشرف وطن.

ارفعوا هاماتكم أنتم يا سلالة الفراعنة، ويا ورثة حضارة الإسلام...

ومرة أخرىٰ كونوا متحدين كي تنصروا حقكم المقدس، وتحصلوا ثانية علىٰ حريتكم، وقولوا كلكم معي: تحيا مصر! يحيا الاستقلال.".

إن السياسة الحقة إيمان راسخ بأن الحق إلىٰ نصر، وأن الغاية إلىٰ بلوغ، والسياسي المؤمن بحقوق وطنه يتمتع بسياسة ذات نفَس طويل مهما استطال دربه، إذ يسير إلىٰ غايته دون كلل أو ملل مؤمنًا بأن النتيجة هي النصر، إذ تقول الحكمة: " من سار علىٰ الدرب وصل". يقول مصطفىٰ كامل[٢]:

" فلتستمر صحفنا في الكتابة، ونحن لا نملك من أن نرفع صوتنا، وليكن مبدؤنا علىٰ الدوام هو الإقناع؛ لأن الغير إن لم يقتنع اليوم فسيقتنع غدا، وإن قوة القانون لا تقهر، والنصر لها مؤكد إن عاجلًا أو آجلًا".

والسياسة الحقة كذلك كلمة حق في وجه كل قوة ظالمة، والسياسة صوت الغيرة علىٰ الحق والعدل، ومقدرة علىٰ زنة الأمور ووضعها في نصابها الصحيح، وهي مصباح كاشف لأقدار الرجال الذين يشرف بهم الوطن العزيز، إذ يعادلون أكفأ العقلاء لدىٰ كل الأمم ولا سيما الإنجليز..

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٣٤٥.

(٢) السابق نفسه ص ٣٤٣.

والسياسة أولاً وأخيرًا ممارسة إنسانية، ولذا فإن مصطفىٰ كامل يقدم العدل والرحمة علىٰ السياسة؛ إذ إن السياسة الراشدة ينبغي أن تعمل علىٰ تخفيف آلام الناس، والتاريخ شاهد أمين علىٰ السياسة الراشدة لخلفاء الإسلام العظماء في الاعتماد علىٰ الحقائق، والامتثال للحق ولو من أدنىٰ الناس، فلم تكن السياسة عندهم فوق الحق، حيث كان الحق عندهم فوق كل شيء..

يقول مصطفىٰ كامل[1]:

"إذا كان الإنكليز يجهلون أحوال المصريين وما يدور بينهم، فليعلموا أن في هذه الأمة رجالاً متنورين رشيدين يعادلون أكفأ العقلاء من الإنكليز، وأنهم يغارون علىٰ الحق والعدل، ولا يرضون بأن تكون الأحكام في البلاد قائمة علىٰ الغايات والأهواء، وهؤلاء الرجال هم القوة المفكرة التي تحترمها كل حكومة فىٰ العالم غاية الاحترام....

ألا فاقرأوا معاشر الإنكليز التاريخ الإسلامي، وانظروا في أعمال أولئك الخلفاء العظماء الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة في كل وقت وفي كل مكان، ويمتثل للحق ولو كان قائله أحقر الناس.

فخليق بالإنكليز وهم الذين يَدَّعون أن مدنيتهم سادت علىٰ كل مدنية أن يذكروا أن رجال المدنية الإسلامية لم يكونوا ليقولوا: "السياسة فوق الحق" بل كانوا يقولون ويؤيدون هذا القول بألف دليل: "الحق فوق كل شيء"[2].

---

(1) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٣٢٤.

(2) اتخذها بعد ذلك سعد زغلول شعاره عندما قال: الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة.

سادساً: السياسة تعالج أمراض الأمم:

من أخطر الآفات التي تصيب الأمم: الخيانة واليأس والدس بين أفراد الأوطان، ولذا فإن معرفة أسباب الأمراض نصف الطريق إلىٰ معالجتها.

والواقع يشهد بأن مصر لم تحلّ عليها مصيبة الاحتلال الإنجليزي إلا عن طريق الخيانة؛ حيث لم يفلح الانجليز بكل آلاتهم وعتادهم ومعداتهم من دخول مصر من الجهة الشمالية، حيث ردهم أبناء مصر عند "كفر الدوار" خمس مرات، وأجبروهم علىٰ الرجوع إلىٰ البحر، ولم يدخلوا إلا من الجهة الشرقية عن طريق الخيانة.

وإذا كانت الخيانة قد فعلتْ فعلتها حتىٰ حلَّ الاحتلال، فإن مصطفىٰ كامل بحسه الوطني الذكي لم يكن ليظل يبكي علىٰ الشرف المسكوب عن طريق الخيانة، إذ هو يدرك أن هناك من المصائب ما يعد شر الوسائل التي تبررها غاية الاحتلال الدنيء حيث يلجأ إلىٰ وسيلة الدسِّ بين صفوف الوطنيين من جانب حتىٰ يفتَّ عضد وحدتهم وقوتهم التي خبرها من قبل في حملة "فيزر" ١٨٠٧م ثم عند "كفر الدوار" ١٨٨٢م، كما أنه من جانب آخر يلجأ إلىٰ بثِّ اليأس في نفوسهم حتىٰ يشيع روح الخمود، والركون إلىٰ الكسل والجمود..

يقول مصطفىٰ كامل[١]:

"تقولون يا أعداء مصر: إننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين وزمن طويل، فنجيبكم: إننا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل؛ لأننا لا نعمل لأنفسنا، بل نعمل لوطننا، وهو باق، ونحن زائلون...."

وهنا يبدو دور السياسي الوطني جليلًا، إذ يبعث برسائل الثقة في نفوس الوطنيين الرسالة تلو الأخرىٰ لمواجهة كل وسائل الدسِّ وتثبيط الهمم، وإشاعة اليأس في النفوس، وينتزع كل أثر لذلك، ويكشف كل غشاوة ضُرِبت علىٰ العيون كي ترىٰ

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٣٠٣.

النصر كأنه حقيقة ماثلة، وهو بلا ريب نتيجة آتية للوطنيين والسياسيين الشرفاء إذ يعملون لذلك ما وسعهم العمل دون توقُّف بلا كلل أو ملل..

يقول مصطفىٰ كامل[1]:

"إن العامل الواثق من النجاح يرىٰ النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرىٰ من الآن هذا الاستقلال المصري، ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك بلا محالة.

فمهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام وأتىٰ بعد الشروق شروق، وأعقب الغروب غروب، فإننا لانمل ولا نقف في الطريق، ولا نقول أبدا: لقد طال الانتظار!

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا الىٰ أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي الأيام وحاضرها، وأعلىٰ مطلب ترمىٰ إليه في مستقبلها!

فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر علينا، ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية.

نعم. لو أخذنا الموت من هذه الدار واحدًا بعد واحد، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: «كونوا أسعد حظًّا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز علىٰ أيديكم، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس»

بلادي! بلادي! لك حبي وفؤادي. لك حياتي ووجودي. لك دمي ونفسي. لك عقلي ولساني. لك لُبِّي وجناني. فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر".

❁❁❁❁❁

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٣٠٤.

الفصل الثالث

النزعة الدينية في الخطابة السياسية عند مصطفى كامل

" دراسة فنية "

أولاً: البناء الفني:

يبدو البناء الفني في إنشاء فن الخطابة بصفة عامة متكاملًا من خلال ثلاثة أجزاء أساسية مترابطة متآلفة تتمثل في مقدمة وموضوع وخاتمة.

وعلىٰ هذا يمكن تحليل البناء الفني للخطابة عند مصطفىٰ كامل علىٰ النحو الآتي:

١ـ المقدمة:

من خير ما يمثل مقدمات خطب مصطفىٰ كامل مقدمة خطبته التي ألقاها بالإسكندرية عام ١٩٠٠م، حيث يقول فيها[١]:

"سادتي وأبناء وطني الأعزاء..

كلما جئت إلىٰ الإسكندرية، ورأيت هذه الحياة الحقيقية التي جعلت لكم مقامًا محمودًا بين بني مصر، أعود شاعرًا بأن لي في هذه المدينة الزاهرة أساتذة في الوطنية، عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها، وهذا ما أخرني في السنين الأخيرة عن الوقوف أمامكم هذا الموقف، ومناداتكم في شؤون الوطن العزيز، ولكني أشعر بأن تبادل الميول، وانتقال العواطف الطاهرة من فؤاد إلىٰ فؤاد، واجتماع القلوب في وقت واحد حول آمال واحدة، وسريان روح مشتركة في هذا المجموع العظيم، مما يزيدنا اعتقادًا علىٰ اعتقاد، وحبًّا للديار علىٰ حب، ويخفف عن الوطن المقدس آلام مصائبه العظام".

تحلت مقدمة الخطبة، وكذا سائر مقدمات خطب مصطفىٰ كامل -علىٰ وجازتها الشديدة- باشتمالها علىٰ عدة أمور عملت علىٰ ادائها الدور الافتتاحي

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ١٥٦، ١٥٧.

بصورة مثيرة كل الإثارة، وذلك لكونها خطابة سياسية ذات مواصفات ومقتضيات تتطلبها مثل هذه النوعية من الخطابة قد تمثلت فيما يأتي:

أ- التنبيه والإثارة:

من ذلك قوله في مفتتح المقدمة: "سادتي وأبناء وطني الأعزاء.."

حيث جاء استهلال المقدمة عن طريق:

_ أسلوب النداء محذوف الأداة إشعارًا للمخاطبين بمدىٰ قربهم إلىٰ نفسه، واهتمامه بهم، وتقديره لهم.

_ ارتفاعه بمقام المخاطبين إلىٰ حد يصدح فيه بأنهم له سادة، إذ يضيفهم إلىٰ نفسه عن طريق ياء النسب تارة، وأنهم جميعًا سواء في أنهم أبناء وطن واحد، وهم جميعًا يشرفون بالانتماء إليه، وفي ذلك من التآلف والحميمية المحمودة بين الخطيب والمخاطبين ما فيه..

ب_ استمالة المخاطبين وإكبارهم..

وقد بدا ذلك من خلال قوله: (سادتي).

وكذا في قوله: "هذه الحياة الحقيقية التي جعلت لكم مقامًا محمودًا"

وكذا في قوله: "في هذه المدينة الزاهرة أساتذة في الوطنية".

وفي هذا من الإكبار والتقدير ما يجعله يكسب قلب كل صغير وكبير من خلال ما يشعر به الجميع من حميمية، ووثيق تواصل نفسي مع ذلك الخطيب الذي تمازجت نفسه مع نفوس مواطنيه ومحبيه..

علىٰ أن تقدير الخطيب المخاطبين وتقريره بأنهم أساتذة في الوطنية لا يقف عند حد امتداحهم واستمالتهم، إذ هو من طرف خفي – بذكاء نادر – يلزمهم بما عليهم من واجبات قبل التحدث عن الحقوق، أو هو علىٰ أقل تقدير يلزمهم بعملية توازن حكيم متبصر بما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات..

ج_ إقرار الحقائق التي تتعلق بأهم القضايا:

إقرار الحقائق التي تتعلق بقضايا الوطن منذ مقدمات الخطب يولد في نفس المخاطبين مقادير مهمة من المصداقية والثقة وتقدير الطرح الذي يطرحه الخطيب، وقد تجلىٰ ذلك من خلال اعتماده علىٰ الأسلوب الخبري بما يحمله من معانٍ تقريرية ذات صبغة ثبوتية لا ريب فيها ولا توجس كما في قوله: " في هذه المدينة الزاهرة أساتذة في الوطنية، عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها".

وقوله: "أشعر أن تبادل الميول، وانتقال العواطف الطاهرة من فؤاد إلىٰ فؤاد، واجتماع القلوب في وقت واحد حول آمال واحدة، وسريان روح مشتركة في هذا المجموع العظيم، مما يزيدنا اعتقادًا علىٰ اعتقاد، وحبًّا للديار علىٰ حب، ويخفف عن الوطن المقدس آلام مصائبه العظام"

د_ الإيجـــاز والتركيز والإشارة إلى موضوع الخطبة بكياسة وذكاء:

ما أجلَّ قول أهل البلاغة: البلاغة الإيجاز! وهكذا جاءت مقدمات خطب مصطفىٰ كامل بصفة عامة تتحلىٰ بإيجاز مناسب استطاع من خلاله أن يدلف إلىٰ رحاب موضوعاته من أقصر طريق دون إملال أو إخلال، وقد تمثل ذلك في مقدمة خطبته سالفة الذكر خير تمثيل، حيث تخلىٰ فيها عن إطناب في غير محله ومجاله، أو فضول يصرف المتلقي عن أهمية الموضوع وجلاله.

علىٰ أنه في وعيه بضرورة إيجاز المقدمة إلا أنه كان يميل أحيانًا إلىٰ تكرار بعض المفردات أو العبارات لفظًا أو معنىٰ بطريقة ذكية ولطيفة لتأكيد أمر ما، أو لتوليد معنىٰ جديد..

_ ومن الأول: استخدامه كلمة (الوطن) في البداية مضافة إلىٰ ياء النسب بدلالتها الانتمائية وما في ذلك من ارتباط وحميمية بين الوطن ومواطنيه.

ثم اشتق منها كلمة (الوطنية) لبيان أنها صفة نابعة من المواطن المرتبط بوطنه الذي هو منه، ومأواه إليه أولًا وأخيرًا.

ثم عدل عن ذلك إلىٰ استخدام كلمة (الأمة) بدلالاتها المعطاءة التي يستمد منها كل حقوقه

المادية والمعنوية، ولذا فلا عليه في مقابل ذلك إلا أن يقوم كل مواطن بكل ما يجب عليه تجاه أمته من تقدير ورعاية، وإنماء وإكرام، بل حماية وتضحية.

كما أن استخدامه كلمة (الأوطان) مجموعة يشي بأن محبة الأوطان فطرة إنسانية عامة فطر الله عليها جميع خلقه دون أن يختص بها شعبًا أو وطنًا دون سائر الشعوب والأوطان.

وقد جاء استخدام (الوطن) مجردًا من أي إضافة أو اشتقاق مما يدل علىٰ مدىٰ رغبته في أن يرىٰ وطنه مستقلًا عزيزًا متفردًا متخلصًا من كل تبعية دونية، أو قيود عدوانية..

_ ومن الثاني قوله: " ولكني أشعر بأن تبادل الميول، وانتقال العواطف الطاهرة من فؤاد إلىٰ فؤاد... وسريان روح مشتركة في هذا المجموع العظيم، مما يزيدنا اعتقادًا علىٰ اعتقاد، وحبًّا للديار علىٰ حب ".

حيث يشعر المخاطب أن تبادل الميول، وانتقال العواطف الطاهرة بين الأفئدة يؤدي إلىٰ توالد مزيج من الميول المتآلفة، والعواطف الصادقة التي تسري في روح مشتركة بين أبناء الوطن بصورة تقوِّي درجات الحب للوطن والديار علىٰ أن ذلك عقيدة راسخة..

ومهما يكن من أهمية لمقدمة الخطبة فإنها لم تكن لتستغرق سوىٰ بضعة أسطر، ذلك أن أهميتها ليست أهم من الموضوع ذاته، ولذا طفق مصطفىٰ كامل يَجِدُّ كل الجد في الولوج إلىٰ رحاب موضوع الخطبة مشيرًا إلىٰ أنه يتمثل في قضية الوطن من خلال أزمة الاحتلال، والعمل علىٰ الخلاص من أجل الحرية والاستقلال..

وقريبًا من هذه المقدمة كمًّا وكيفً، وأسلوبًا واستمالةً، إثارةً وتشويقًا، فضلًا عن الإشارة إلىٰ موضوع الخطبة مقدمة الخطبة التي أُلقِيت في ٣ مارس ١٨٩٦م بالإسكندرية، يقول فيها(١):

"سادتي وأبناء وطني الأعزاء: ...

ويسرني أن أحادثكم اليوم في شؤون الوطن العزيز... وأراني موفقًا لحصولي علىٰ هذه الفرصة الثمينة التي أتبادل معكم فيها ما يختلج في نفوسنا من الآمال والأماني التي هي معنىٰ الحياة، والباعث القوي علىٰ العمل بجد ونشاط".

علىٰ أن من مقدمات الخطب ما يكون أكثر إيجازًا حسب طبيعة الموضوع وما يقتضيه المقام، علىٰ نحو ما كان في مقدمة الخطبة التي ألقاها في "لندن" ١٩٠٦م وحضرها عديد من الشخصيات السياسية، والإعلامية الأجنبية، حيث جاءت مقدمتها لا تتجاوز ثلاثة أسطر علىٰ النحو الآتي:

" أيها السادة: اسمحوا لي أن أشكركم علىٰ الشرف الذي تفضلتم بمنحه إياي بقبولكم دعوتي. وإني لسعيد حقيقة بانتهاز هذه الفرصة لمحادثتكم في شؤون مصر وإعلان حقيقة عن عواطف المصريين وأفكارهم"(٢).

٢- عرض موضوعات الخطب:

يعد الموضوع في بناء الخطبة من الأهمية بمكان، إذ إنه الأساس الذي يقوم عليه البناء بكل ما يشتمل عليه من مضامين، وما يحمله من أفكار، وما يرمىٰ الخطيب من خلاله إلىٰ بلوغه وتحقيقه من غايات وأهداف.

وقد اتسمت موضوعات الخطابة عند مصطفى كامل بسمات عديدة على النحو الآتي:

---

(١) جريدة المؤيد: عدد ١٨١٥، ٤ مارس ١٨٩٦م.

(٢) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٩٥، ألقيت الخطبة بالفرنسية في الإسكندرية ٢ مارس ١٩٠٧م، وترجمت بمعرفة جريدة الليتندار إجبسيان ٣ مارس ١٩٠٧م.

أ_ الوحدة الموضوعية والتسلسل الفكري:

تَحلَّت خُطَب مصطفىٰ كامل بصفة عامة بوحدة موضوعية جلية كان حريصًا علىٰ أن يحافظ عليها من أول جملة في مستهل موضوعها إلىٰ آخر جملة في نهايته علىٰ مستوىٰ فكرته الأساسية وما يتفرع عنها من أفكار فرعية متسلحًا في ذلك بشخصيته ذات الميراث الأدبي والثقافي والحقوقي والسياسي واللغوي الثري الجامع بين أكثر من لغة بما لها من ثقافة مما منحه ألوانًا من المنطق والفكر المنظم الذي جاء في عرض مفعم بالحيوية، وقوة الأسلوب، وحماسة العاطفة، وقوة التأثير " في وحدة منسجمة متصلة، فهي خط مستقيم لا انقطاع فيه "[1].

كما يبدو العرض من بدايته إلىٰ نهايته تسري فيه روح واحدة " ليس فيها تناقض، ولا خطوة واحدة في غير موضعها"[2].

اللهم إلا ما كان يعد من قبيل طبيعة الخلق البشري الذي، إذ لا يتصف بالكمال إلا خالق البشر..

•• ففي خطبته التي ألقاها في ٣ مارس ١٨٩٦م في الإسكندرية أعلن في بداية العرض موضوع الخطبة وفكرتها الأساسية بوضوح وجلاء عن شؤون الوطن العزيز ومحبة أهله حبًّا قويًّا، والعمل من أجل خيره وعزته لتحقيق آماله بكل جد ونشاط..

-ورغم أن العمل من أجل خير الوطن وعزته وتحقيق آماله يدل علىٰ مدىٰ حب أبنائه

الوطنيين وحماستهم، إلا أن مصطفىٰ كامل يحذِّر بوعي من مغبة الإفراط في محبة قد تضر، مُوجِّهًا إلىٰ أن في الاعتدال تحقيق الآمال دون إفراط أو تفريط في

---

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ١٩٥، عن جريدة "الجورنال دي كير" الفرنسية يناير ١٩٠٦م.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

الحقوق، علىٰ أنه في الوقت نفسه يحذر من فاقدي الأمل ودعاة اليأس ودعاة التطرف، وهو بذلك إنما ينشد الموضوعية والنقد البناء من أجل سلامة النسيج الوطني كي يبقىٰ نقيًّا قويًّا في مواجهة الاحتلال وأعوانه من أجل نيل الحرية والاستقلال..

-علىٰ أن الذي يفتُّ في عضد هذا العرض الوطني السامق وتسلسل أفكاره ما كان من إطراء عن (الخديوي) ببيان أن له دورًا في محاولة استرداد مصر حقوقها ونيل استقلالها، وإزالة الخلاف القديم بين مصر والدولة العثمانية.

ولا أدري عن أي دور يحسب للخديوي يمكن أن يُتحدَّث عنه قبل الاحتلال أو بعده، اللهم إلا أن يكون ذلك مما يُحسَب من قبيل الضرورات السياسية التي يُتعلَّق بها حتىٰ ولو لم تكن لتمثل سوىٰ تعلُّق من يكاد يغرق (بقشة) قد لا يجد الإنسان من شيء يتعلق به إلا أن يتعلق بتلك القشة!

يقول مصطفىٰ كامل[١]: "ولا يجب أن ننسىٰ أن أميرنا المحبوب سهل علينا كثيرًا خدمة الوطن الشريف؛ فإنه هو الذي أسمع أوربا أن مصر ترغب بغيرة وتسوق نوال حريتها التامة، وهو الذي أزال الخلاف القديم بين مصر والدولة العثمانية..."

-وإذا كان مثل هذا الصنيع مما يؤخذ علىٰ مصطفىٰ كامل، فإنه يحسب له بصفة عامة تحليه بالنقد الموضوعي تجاه المخالفين في الرأي أو في التوجه، علىٰ نحو ما أبداه من رؤية حكيمة تجاه الغلاة المتطرفين ضد الوطنيين المعتدلين، حيث يقول[٢]:

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ١٠٣، ١٠٤.

(٢) السابق: ص ٩٩.

"... وهؤلاء المتطرفون الغلاة لا يجب أن نهملهم إهمالنا اليائسين، بل يجب أن نسمع أقوالهم، ونناقشهم في آرائهم لإقناعهم بحكمة السكينة والاعتدال، مع العمل بجد وغيرة علىٰ خير البلاد وسعادتها".

- وفي سبيل توكيد الفكرة لا ينهي مصطفىٰ كامل خطبته حتىٰ يعود مُلحًّا علىٰ فكرته الأساسية من خلال العمل من أجل إعلاء شأن الوطن والافتخار بشرف الانتساب إليه بحب واعتزاز، غير أنه يبين أن الحب وحده لا يكفي، ولكن لا بد من عدة أمور أهمها:

- العمل بجد وإتقان..

- اتحاد الكلمة والتجرد عن الأمور الشخصية، ونبذ الخلافات والمنازعات الداخلية.

يقول مصطفىٰ كامل[1]: "ولا ريب عندي في أنكم كلكم تودون مثلي أن تكون مصر بلادًا

حرة منتشرة في سائر أرجائها من الإسكندرية إلىٰ منابع النيل أنوار العلوم والمعارف، وتصبح كما كانت مهدًا للفضائل والآداب، مشرقًا لشمس المدنية....

ولا يكن حبكم واقفًا عند حد الحب وحنانكم عند حد الحنان، بل لتتجاوزوا ذلك إلىٰ العمل لخيرها وإعلاء شأنها....

ومستحيل علينا أن نصل إلىٰ السعادة التامة ونفوز برغائبنا الوطنية إلا إذا اتحدت كلمتنا واجتمعت قلوبنا علىٰ محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات...

ولا يكون مثلنا مثل عائلة اشتعلت النار في دارها وأفرادها متباغضون، فبدلًا من أن يجتمعوا لإطفائها أخذوا يتنازعون ما أبقته يد النار من المتاع غير ناظرين إلىٰ أن

---

[1] أوراق مصطفىٰ كامل: د. يواقيم رزق: ص ٩٩.

النار تصل إليهم، فتحرقهم وتحرق متاعهم وتقضي علىٰ دارهم.. إذا لم تَزُل آثار الشقاق من بينهم ويجتمعوا علىٰ إطفائها.

وإن يومًا تجتمع فيه قلوبنا علىٰ محبة البلاد وخدمتها وتتحد فيه كلمتنا يكون يوم تحقق الآمال...".

•• وفي خطبته التي ألقاها في "لندن" ٢٦ يوليو ١٩٠٦م وقد حضرها العديد من الشخصيات السياسية والصحفية ورموز الفكر والإعلام ونواب مجلس العموم البريطاني كان موضوعها هو كشف مزاعم الاحتلال وافتراءاته المستمرة ضد مصر وأهلها في أوربا وفساد سياساته بصفة عامة، وجنايته علىٰ مصر..

• علىٰ أنه ينطلق في عرض موضوعه من نقطة ابتداء بوضوح تام يواجه تلك المزاعم بالحقائق بنفس واثقة أن المزاعم إلىٰ زوال، وأن الحق قائم ومنتصر في نهاية المآل، وهو يخطب ويهتف بذلك في ثبات في عقر ديار الزعم والاعتداء والافتراء، علىٰ نحو ما يقول[1]:

"إن ذوي الاغراض ينشرون علىٰ الدوام في أوروبا عامة وفي إنكلترا خاصة الأغلاط والأكاذيب بشأن أحوال مصر وإحساسات المصريين.

ولكننا واثقون من أن الحقيقة القادرة القاهرة دائمًا تغلب في النهاية وتفوز وتهدم هذه الأبنية، أبنية الاختلافات والتهم الكاذبة".

• وعقب إعلانه عن تلك المزاعم ومآلها شرع يكشف أشنع تلك المزاعم متمثلة فرية تعصب الإسلام ساخرًا من إشاعة تلك الفرية التي يدحض الواقعُ الماثلُ قيامَها مؤيدًا ذلك بإقامة الحجة وضرب المثل، وهو بسبيل ذلك يكشف بعمق أنه إذا كان الإنجليز يروجون ويؤكدون فكرة التعصب الديني استنادًا إلىٰ ذريعة استغلال عواطف الشعور الديني لدىٰ المصريين لمواجهة الوجود الإنجليزي (الاحتلال)

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٨٣.

فإنه ينقض تلك التهمة الشنعاء وما يحيط بها من أكاذيب وأغلاط، ومزاعم وأوهام مستندًا إلىٰ أسباب عدة من أهمها:

_ سماحة الدين الإسلامي التي لا ينكرها إلا جاحد أو مكابر...

_ إيمان المصريين بأن سلاحهم في المواجهة من أجل حصول بلادهم علىٰ حريتها واستقلالها يقوم علىٰ العلم والإيمان بالحق والعدل...

يقول مصطفىٰ كامل[1]: **"إن هناك أسبابًا عدة تحول بيننا وبين التعصب:**

أولها: مبادئ الإسلام التي هي صريحة واضحة قطعية، حيث تأمرنا بمعاملة المسيحيين بعدالة وإنصاف. أو لم يتزوج نبينا الكريم نفسه بمسيحية وأثبت بذلك للعالم حرية فكره وسموه؟..

وثانيًا: أن المدنية ونور العلم وهبا المصريين ملكة التمييز والحكم والذوق السليم؛ فهم يعرفون أن الأوربيين وكافة المسيحيين العائشين في مصر ليسوا مسؤولين عن السياسة الأوربية وأغلاطها، وأنه لا يمكنهم بغضهم لذلك....فليست عواطف الحقد الديني هي سلاحنا في إنقاذ جنسنا، وإنالته المكان اللائق به بين الأمم، بل سلاحنا التقدم والعلم والفكر القائم علىٰ مبادئ الحرية".

• وفي سبيل كشف مزاعم وأكاذيب الاحتلال جعل يفضح سوآته من خلال إضعافه، بل إفساده حركة التعليم عكس ما يدعيه تمامًا بأنه يعمل لنهضة مصر التي لا ريب في نهضة بنيها بدونه رغم فساده وإفساده، وذلك حيث يقول[2]:

"إن سببًا من أهم أسباب استياء المصريين هو المسلك المتبع في نظارة المعارف العمومية. فإنه يجري علىٰ قواعد ثلاث:

الأولى: إبعاد الطبقة الفقيرة عن مدارس الحكومة.

---

(1) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٨٥.

(2) السابق: ص ٢٨٩.

والثانية: تعليم التلاميذ العلوم كلها بالإنكليزية وتنحية اللغة العربية..

والثالثة: جعل التلاميذ آلات وموظفين طائعين.

وتحقيقًا لهذه الغاية تهمل دراسة التاريخ والفلسفة والعلوم التي ترقي الفكر والذكاء حقيقة، وتعرف الإنسان قيمته ووظيفته في الحياة...

وإننا نصرف كل قوانا لمداواة هذا الداء... والعدد الكبير من التلاميذ الفقراء يتعلم في المدارس الأهلية التي أسستها الجمعيات أو الآحاد ويظهرون كفاءة كبرىٰ واستعدادًا عظيما".

• وبصفة عامة يكشف مصطفىٰ كامل من خلال عرض خطبته عن حقيقة الاحتلال، حيث يعد وجوده وجودًا ذريًّا لما يقترفه في تلك السبل وغيرها لا يُرجَىٰ منه أن يحقق خيرًا، أو يقيم عدلاً مع ما يمنحه -دون وجه حق- لنفسه وأتباعه من امتيازات أجنبية هي جرائم في حق الإنسانية في ظل تغييبه الدستور والقانون، وهو ما يرفضه الوطنيون الشرفاء ويعارضونه أشد المعارضة، ويواجهونه بكل السبل من أجل الاستقلال..

يقول مصطفىٰ كامل[1]:

"... فمعارضة الوطنيين المصريين للاحتلال طبيعية ولا غرابة فيها... إنكلترا لم تفتح مصر ولم تغزها، بل دخلتها كدولة محبة لتوطيد عرش الخديوية...فمصر لا تسأل إحسانًا بمطالبتها بحريتها، بل تطلب حقًّا معترفًا به ولا نزاع فيه... لأنه لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان ألا وهو "استقلال الوطن وعظمته"

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٩٤.

ب_ توظيف الأسلوب:

أحسن مصطفىٰ كامل في عرض خطبه توظيف الأسلوب والعمل علىٰ استثمار طاقاته ومعطياته وإمكاناته اللغوية والفكرية والفنية بما يخدم عرض موضوعاته وقضيته بوعي وذكاء مثير ومؤثر في وجدان المخاطبين.

وهو كذلك يكشف في أسلوبه عن شخصية وطنية ذكية؛ فالوطنية لا تتجلىٰ في مجرد شعارات وحماسة عنترية قد تضر بحامل لوائها ومن يشاركونه حمل راياتها، وفي ذلك من الإثم ما تجليه تعاليم الإسلام الحكيم بأنه "كفىٰ بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول"(١).

• وفي خطبته التي ألقاها في ٢٦ يوليو ١٩٠٦م في "لندن" أمام عديد من الشخصيات السياسية والصحفية ورموز الفكر ومجلس العموم البريطاني لم يكن ليخفىٰ علىٰ مصطفىٰ كامل -من خلال درايته بطرق تفكيرهم ووسائل قناعاتهم- أن يخاطبهم بأسلوب دقيق في أخباره، صادق موثَّق في عرضه، واثقًا بنفسه ووطنه ومواطنيه وعقيدته استنادًا إلىٰ الحق والحقيقة فهي قادرة قاهرة، والحق دائمًا منتصر علىٰ الباطل بزعمه ووهمه وافترائه..

_ ففي بداية عرضه موضوع خطبته أرسل الأسلوب خبريًّا تقريريًّا مدويًّا مؤكدًا أن هناك

أصحاب أغراض دنيئة ومريضة ينشرون في أوروبا عامة وإنكلترا خاصة أكاذيب وفِرىٰ مستمرة حول مصر وأهلها..

يقول مصطفىٰ كامل: "إن ذوي الاغراض ينشرون علىٰ الدوام في أوروبا عامة وإنكلترا خاصة الأغلاط والأكاذيب بشأن أحوال مصر وإحساسات المصريين".

(١) حديث نبوي شريف أخرجه أبو داود بصيغة "من يقوت" بدل "من يعول".

_وهو بعد ما قرر أن ما ينشر عن مصر وأهلها محض كذب وافتراء لا يكتفي بمجرد التقرير، حيث يضرب عن ذلك مقرِّرًا ومؤكِّدًا ثقته والمصريين جميعًا أصحاب الحق بأنهم لن يتخلوا عن حقهم الذي سَيَغلب في النهاية وينتصر ويهدم كل ما بناه المفترون والمرجفون علىٰ زعم ووهم وكذب زائف، علىٰ نحو ما يقول(١):

"ولكننا واثقون من أن الحقيقة القادرة القاهرة دائمًا تغلب في النهاية وتفوز وتهدم هذه الأبنية أبنية الاختلافات والتهم الكاذبة".

_ثم ينتقل مصطفىٰ كامل من نطاق أسلوبه الخبري في ثوبه الفضفاض عن نشر التهم والأكاذيب عن مصر وأهلها بصفة عامة إلىٰ نطاق خاص بتقرير أن من أشنع الأساليب الكاذبة تهمة مصر وأهلها بالتعصب الديني، حيث يقول:

"... إذ رُميت بأشنع التهم، ألا وهي تهمة التعصب الديني".

_وهو في دحض هذه التهمة يطلق الأسلوب حاسمًا جازمًا رافضًا تلك التهمة الشنعاء مضربًا عنها أشد الإضراب، مؤمنًا أشد الإيمان بسماحة دينه القويم وكرامة وطنه الكريم، حيث يقول(٢): "كلا، وألف كلا. إن مصر ليست متعصبة".

ثم يعود ويؤكد رفضه وإضرابه أكثر من مرة مقرِّرًا أن مسلمي مصر أكثر أمم الأرض اعتدالًا، حيث يقول(٣):

"كلا. أيها السادة، إن مسلمي مصر ليسوا متعصبين أبدًا، بل هم -وإني أؤكد ذلك- أكثر أهل الأرض اعتدالًا".

---

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٨٣.

(٢) السابق: ص ٢٨٥.

(٣) السابق: ص ٢٨٥.

وهو في رفضه هذا يبدي مدىٰ زجره تلك الأكاذيب والافتراءات مؤكدًا ذلك ومكرِّرًا بوسائل تأكيدية متنوعة، وأخرىٰ للنفي المعضد بالتأبيد، وكذا استخدامه أسلوب التفضيل للمصريين بين الأمم المتوج بتاج التفخيم وتنكير التعميم.

_ومن التعميم في رفضه الجازم تهمة التعصب الديني خاصة إلىٰ التفصيل ببيان ذكر الأسباب التي تحول بين المصريين ودينهم السمح وبين التعصب المزعوم، علىٰ نحو ما يقول: "وإن هناك أسبابًا عدة تحول بيننا وبين التعصب المزعوم:

أولها: مبادئ الإسلام التي هي صريحة واضحة قطعية، حيث تأمرنا بمعاملة...

وثانيًا: أن المدنية ونور العلم وهبا المصريين ملكة التمييز والحكم والذوق السليم... "[1].

والحديث عن الأسلوب سيأتي تفصيلًا في موضعه، غير أن اللافت لنظر المتلقي ووعيه في عرض موضوعات الخطب هو صفاء الأسلوب ورواءه وتدفقه في قوة بالغة، وحكمة سديدة بصورة كاشفة عن عقلية منظمة منضبطة، وشخصية قوية جريئة وقادرة علىٰ مجابهة الاحداث ومواجهة أهلها في كل محفل، ولو في معاقل ديارهم..

٣- خواتيم الخطب:

تعد الخاتمة في بناء الخطبة من الأهمية بمكان؛ ذلك أنها آخر ما يبقىٰ لدىٰ المتلقي في الذهن والوجدان من الخطبة، حيث تشتمل علىٰ خلاصة الموضوع وثمرته. والخاتمة شأنها في الخطبة شأن كل عمل يكون له " انتهاء" علىٰ نحو ما يذكر قدامي النقاد بأن من لوازمه " أن يكون محكمًا لا يمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه[2]"

---

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٣٨٥.

(٢) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تقديم وشرح د. صلاح الدين الهواري وهدىٰ عودة، مكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت ١٤١٦هـ، ج١، ص ٣٥٥.

وقد اتسمت خاتمة خطب مصطفىٰ كامل بعدة سمات عملت علىٰ أن تبدو خواتيمها نهاية

جيدة دقيقة وسديدة بالغًا بها غايته مما ابتغاه في خطابته بقدر ما اشتملت عليه من عوامل عملت علىٰ تحقيق ذلك علىٰ النحو الآتي:

أ_ الإيجاز والتركيز:

تحلَّت خطب مصطفىٰ كامل في مجملها باشتمالها علىٰ خواتيم مركزة وموجزة بصورة نسبية؛ وذلك نظرًا لطبيعة موضوعات خطابته التي اصطبغت بصفة عامة بصبغة وطنية وقومية ذات طوابع شمولية، وقضايا كبرىٰ تحلَّىٰ فيها الخطيب بالنفَس الطويل، وعلىٰ قدر ضخامة الموضوع وتشعب عناصره يكون قدر التركيز والإيجاز في الخاتمة، علىٰ نحو ما تحقق في خطبته التي ألقاها في ٣ مارس ١٨٩٦م بالإسكندرية.

حيث جاءت الخاتمة حكيمة سديدة موائمة ومكافئة لمستهل موضوع الخطبة التي جمع فيها -من أجل مصلحة الوطن العزيز ومستقبله- بين إشارات الناصحين وتحذيراتهم، وبين إقدامه وحكمته ودعوته إلىٰ التحلي بالاعتدال في كل حال..

ولذا فقد جاءت الخاتمة واثقة مؤمِّلة في تحقيق الوطنيين أملهم واستقلالهم في مستقبلهم، على أنه يربط تحقيق ذلك بعدة أمور:

- العمل المتواصل من أجل تحقيق المستقبل.
- اتحاد الكلمة والهدف والغاية.
- اجتماع القلوب علىٰ محبة البلاد وخدمتها بإخلاص ونكران الذات.
- إبعاد الدخلاء وتجنيبهم التدخل في شؤون الوطن، ولا سيما الذين لا يعملون لمصلحة الوطن، بل لغيره، ولأنفسهم الدخيلة المريضة.

يقول مصطفىٰ كامل في ختام تلك الخطبة[1]:

"ثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها فاعملوا لسعادته....إني أؤمل ذلك... وأؤمله من صميم فؤاد.

ومستحيل علينا أن نصل إلىٰ السعادة التامة ونفوز برغائبنا الوطنية إلا إذا اتحدت كلمتنا واجتمعت قلوبنا علىٰ محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات...

إن الغرباء في مصر علىٰ ما أرىٰ أربعة أقسام..."

ثم يقول: "وأخيرًا: غرباء لهم الحق في التكلم عن مصر والبحث في شؤونها كالمصريين أنفسهم، وهم لا يقصدون بهذا التداخل إلا الإضرار بها والعمل ضد مصالحها، وهذه الفئة هي ولا محالة فئة الدخلاء التي أقصدها وأجاهر بالعدوان لها، واحاربها آناء الليل وأطراف النهار بقلمي ولساني وكل ما استطعت".

• وفي خطبته التي ألقاها في لندن في يوليو ١٩٠٦م جاءت خاتمتها أكثر إيجازًا وتركيزًا داحضًا فيها مزاعم وأكاذيب المتربصين بمصر، تلك الأكاذيب التي سردها منذ مستهل موضوع الخطبة واثقًا بنفسه ووطنه والمصريين الكرماء الأعزاء الشرفاء الفطناء مجليًّا ذلك في نقاط محددة:

_مصر أوفر تقدمًا ومدنية من بعض الإمارات التي نالت حريتها واستقلالها عن أوربا وإنكلترا.

_كرامة المصريين لا تنسيهم حقوقهم واستقلالهم مهما خالفت إنكلترا وعودها وتعهداته.

_معارضة الوطنيين المصريين الاحتلال حق ولا غرابة في ذلك، ولا خرقًا للعادة لدىٰ كل الأمم.

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ١٠٤ – ١٠٦.

_مصر لا تطلب إحسانًا بمطالبتها حريتها، بل تطلب حقًّا معترفًا لا نزاع فيه، ولذا فإن استقلال مصر وعظمتها ستظل شغل المصريين الشاغل.

يقول مصطفىٰ كامل[١]:

"إن مصر أوفر تقدمًا ومدنية من بعض إمارات البلقان التي منحتها الدول الأوروبية وإنكلترا علىٰ رأسها حريتها.

وإن ثروات العالم لا تنسينا أبدًا كرامتنا وحقوقنا....فمعارضة الوطنيين المصريين للاحتلال طبيعية ولا غرابة فيها....فمصر لا تسأل إحسانًا لمطالبتها بحريتها، بل تطلب حقًّا معترفًا به ولا نزاع فيه....لأنه لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان: ألا وهو "استقلال الوطن وعظمته".

ب- دقة الاستدلال وحسن التعليل:

اختيار المرء وافد عقله، بل قطعة من عقله، كما أن معرفة السبب- كما يقال – تبطل العجب، وكذا فإن خواتيم أي عمل إذا لم تكن مثمرة وذات نتائج جلية، كانت المقدمات جهدًا مهدرًا، كما أن النتائج إذا لم تتحلَّ بالمنطق القائم علىٰ الحجة والإقناع، لم تكن لتحظىٰ بالقبول، والقبول إنما يكون بدقة الاستدلال وحسن التعليل..

_ وهكذا جاءت خاتمة خطبته في الإسكندرية في جانب منها موثقة برؤية فلسفية واقعية أجنبية من خلال ما أورده مصطفىٰ كامل عن ثقته في مستقبل بلاده وأهلها علىٰ لسان "غمبتا" مما يدل علىٰ سعة ثقافته، ويقوِّي استنتاجه، ويؤكد ما يتغياه، علىٰ نحو ما يقول: "ثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها... وتذكروا دائمًا قول غمبتا الشهير: "ليس المستقبل بمستعصٍ علىٰ أحد".

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٩٣، ٢٩٤.

_ كما أنه أجاد ضرب المثل التشبيهي عن تفرق الكلمة في مواجهة العدو بتشاغل أفراد عائلة عن إطفاء نار شبت في دارهم بسبب نزاعاتهم فيما بينهم، حيث يزداد خطرها لتحرقهم وتقضي عليهم إذا ظلوا علىٰ ذلك، علىٰ نحو ما يقول[١]:

"ولا يكون مثلنا مثل عائلة اشتعلت النار في دارها وأفرادها متباغضون، فبدلًا من أن يجتمعوا لإطفائها...."

_ وقد جاءت خاتمة خطبته في لندن كذلك مجللة في جانب منها بحسن التعليل القائم علىٰ حكم منطقي مسلَّم به لدي كل الأمم والشعوب في أن معارضة الاحتلال طبيعية ولا غرابة فيها وليست خرقًا للعادة، وإذا كانت الأمم المتمدنة ترىٰ ذلك أمرًا طبيعيًّا، فأي عجب حين تقوم مصر بذلك؟!

يقول مصطفىٰ كامل[٢]:

"وإذا كان القوم المتمدنون يجدون من الأمور العادية الطبيعية وجود حزب معارضة.... فأي عجب في وجوده في مصر؟".

لقد جاءت خواتيم خطب مصطفىٰ كامل في مجملها نماذج فريدة دقيقة سديدة في كونها جامعة بين الإيجاز والوضوح، وسعة الرؤية، وسداد الرأي، ودقة النتائج الجامعة بين الإقناع والقبول، وحسن الاستدلال والتعليل، وقوة الشخصية وحكمتها، واعتزازها بقضية أمتها من خلال صوت خطابي وطني سياسي مؤمن بعقيدته كل الإيمان، إذ يهتف في أسماع ديار الاحتلال قائلًا[٣]:

"فمصر لا تسأل إحسانًا بمطالبتها بحريتها، بل تطلب حقًّا معترفًا به ولا نزاع فيه...."

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ١٠٥.

(٢) أوراق مصطفىٰ كامل للرافعي: ص ٢٩٤.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

ثانيًا: اللغة والأساليب:

ينهض فن الخطابة في إنشائه بصفة عامة علىٰ ثقافة الخطيب فضلًا عن موهبته الخطابية، ومدىٰ ما لديه من زاد معرفي وفكري، وما يحصله من ذخيرة لغوية من خلال ما يتمتع به من قدرات وخبرات ومهارات في استخدام المفردات والأساليب، وحسن توظيفها في عرض موضوعاته، وإيصال أفكاره، وتحقيق أهدافه. ويمكن إبراز ذلك علىٰ النحو الآتي:

- **الألفاظ والمعاني:**

بدت ألفاظ خطب مصطفىٰ كامل بصفة عامة في خطبه واضحة مختارة بعناية تنم عن فصاحة لغوية، وحصافة فكرية، ونفس قوية تأتي عنايتها بمفرداتها نابعة من مدي إيمانها وعنايتها بكل ما أوتيت من طاقات تجاه وطنها الأبي، علىٰ أنها عناية وقوة تنأىٰ عن حدود القوة المنفِّرة، والتشدق المتكلَّف، حيث جاءت الألفاظ بصفة عامة قوية جزلة، إلا أن جزالتها بدت تتمتع بأنها جزالة مختارة علىٰ حد قول "أبي هلال العسكري"[(١)]: " وأما الجزل والمختار من الكلام، فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها".

_ ومن أمثلة المفردات ذات السمة الجزلة في خطبته التي ألقاها في "لندن"

" الأغلاط، الأكاذيب، واثقون، القادرة القاهرة، تغلب، تهدم، الاختلافات والتهم الكاذبة، التعصب، شدة، الشنيع، سلطة، أشنع، القابضين، الغلظة المتناهية، تجريح، الظلم، الاعتساف، كلا. وألف كلا، المنغمسة، الجهالة، تخمد، لهيب، مظاهرات، حكم، التحريضات، الطاعنون، اعتناق، صوبوا، محض، يخدعونها، ويغشونها، أؤكد، تعضيد، قطعية، الانقلابات والاضطرابات، تعيسة، بغض،

(١) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر، تحقيق محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي، مصر ١٩٧١م، ص ١٦١.

الجهاد، التغلب علىٰ الجهالة، التقدم، الحقد، التمسك، إمعان، ضحينا، قوانا، تأباه، احتجاجات، الاستقلال، حريتها، حقا، عظمته".

• وألفاظ الخطبة علىٰ ما تتسم به من جزالة وقوة فهي تتمتع كذلك بالوضوح والجلاء والطواعية في الأداء بما يتناسب مع طبيعة الموضوع، وتقتضيها فكرته الأساسية وأفكاره الفرعية علىٰ نحو ما يتمثل في المفردات التالية:

_ في قوله[1]: "اسمحوا لي أن أشكركم، وإني لسعيد... لمحادثتكم... وإعلان حقيقة عواطف المصريين وأفكارهم".

فإن المفردات في قوله: "اسمحوا لي أن أشكركم، وإني لسعيد... لمحادثتكم" فيها من لين الجانب وسماحة النفس، واستمالة المخاطبين وتقديرهم بيسر وسلاسة ما يعمل علىٰ فتح مغاليق النفوس وإقبالها علىٰ الخطيب، فتنصت له، وتتدبر كلامه، ولا سيما إذا كان علىٰ نحو ما أردف موضحًا ومؤكدًا أنه يعلن حقائق.

_ كما أن المفردات في قوله: "مبادئ الإسلام... صريحة وواضحة.. حيث تأمرنا بمعاملة المسيحيين بعدالة وإنصاف. ألم يتزوج نبينا الكريم نفسه بمسيحية وأثبت للعالم حرية فكره وسموه؟". جاءت سلسة طيعة واضحة سهلة معبرة تمام التعبير عن سماحة الإسلام وإنصافه وعدالته التي تناقض تهمة تعصب أهله كل المناقضة..

_ وهو كذلك يحسن استخدام الألفاظ في بِنَىٰ لغوية خاصة ذات عطاءات ثرة تأتي ذات دور معبر عن المواقف في سياقها أدق تعبير كما في قوله[2]:

"حكم دنشواي.. الشنيع" وقوله: "أشنع التهم... تهمة التعصب الديني".

---

(1) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٨٣.

(2) السابق: ص ٢٨٣، ٢٨٤.

حيث استخدم صيغة المبالغة الدالة علىٰ مجاوزة الحد والظلم الشديد الذي وصفه بأنه الشنيع في إصداره، وتنفيذه بوحشية وغطرسة تنافي كل حقوق الإنسانية.

كما أن استخدام صيغة التفضيل الدالة كذلك علىٰ الزيادة والتزيد أنها حين تلصق فيها التهم بالدين الإسلامي الذي هو سماحة ورحمة للعالمين فإن التهمة دون شك في ذلك تكون أشنع

التهم وأبشعها، إذ تتصل بدين الخالق جلَّ جلاله إله الحق والعدل والإنصاف والخير، وهو ما يبرز مدىٰ ما يتحلىٰ به الخطيب من تمسك بدينه في رسوخ واعتزاز ويقين.

فالأفعال في العبارة السابقة تدل ببنيتها الجذرية علىٰ قوة أثرها وتأثيرها، إذ هي تزيل الصدأ، وتهدهد السفه، وتذهب أثر الغل، كما أنها بصيغتها المضارعة تدل علىٰ تجدد التأثير واستمرارية فعاليته..

• وقد أحسن مصطفىٰ كامل كذلك توظيف المفردات الدالة علىٰ الجمع، أو المسندة إلىٰ ضميره.

_ ومن ذلك قوله: "الأغلاط، الأكاذيب، الاختلافات والتهم، القابضين، التحريضات، الطاعنون، يخدعونها، ويغشونها...."

حيث عبَّرت تلك الجموع عن كمٍّ كبير من الأكاذيب والافتراءات والتهم والأغلاط التي تحاك ضد مصر وأهلها المتسامحين وعقيدتها الإسلامية السمحة.

كما أن التعبير بقوله: "التحريضات" يكشف أن الأمر لا يتوقف عند حد افتراء التهم والأكاذيب، حيث يتجاوز ذلك إلا حد التأليب والاستعداء، واستنفار المزيد من الأعداء والعداوات ضد مصر وأهلها..

وكذا جاء التعبير بجمع المذكر، ثم بالفعل المضارع المسند إلىٰ ضمير الجمع في قوله: "الطاعنون... يخدعونها...ويغشونها..." دالًّا علىٰ أن الطاعنين

المغالطين المفترين علىٰ مصر وأهلها نفر كثير، منهم من يطعن، ومنهم من يخدع ويخادع، ومنهم من يفتري ويكذب ويغش، وهم لا يفتأون يروجون لذلك، ويجدِّون..

وقد أحسن مصطفىٰ كامل كذلك توظيف الفعل المضارع في ذلك بدلالاته الاستمرارية والتجديدية، علىٰ أن ذلك كله إنما يدل علىٰ ما تتمتع به مصر وأهلها بعراقتهم وإمكاناتهم التاريخية والحضارية التي لا تنضب، لذا كانت تلك الهجمات الطاعنة لإمكان النيل منها وأهلها وعقيدتها القويمة بكل السبل الدنيئة.

• **الأساليب وتنوعها:**

للأسلوب في فن الخطابة علىٰ تنوعه من الأهمية وقوة التأثير في المخاطبين ما يقتضي من الخطيب أن يراعي في صياغات أساليبه ما يناسب عمله الخطابي من مقدمته إلىٰ خاتمته "حيث يتخذه الأديب وسيلة للإقناع[1]".

وقد احتشدت خطب مصطفىٰ كامل بطوائف من الأساليب الخبرية والإنشائية، وغيرها من الأساليب التي زخرت بها خطبه.

علىٰ أن الأسلوب الخبري كان ذا حضور حاشد لما تقتضيه طبيعة الموضوعات وما يريد أن يقرره في وعي المخاطبين بوضوح علىٰ مستوىٰ الماضي المحقَّق، والواقع الموثَّق من أجل المستقبل الذي يؤمن بأن رايات تحقيقه ونصره بالكفاح وباليقين سترتفع وتخفق..

_ ومن أمثلة الأساليب الخبرية التقريرية قوله:

" إن ذوي الأغراض ينشرون... الأغلاط والأكاذيب/ ولكننا واثقون.../ الحقيقة القادرة القاهرة دائمًا تغلب في النهاية/ وتفوز/ وتهدم.. أبنية الاختلافات والتهم الكاذبة/ إن مصر ليست متعصبة/ هم.. أكثر أمم الأرض اعتدالًا/ مبادئ

(١) أحمد الشايب: الأسلوب. دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب البلاغية، مكتبة النهضة المصرية١٩٩١م، ص ٤١.

الإسلام.. هي صريحة واضحة قطعية/ نبينا الكريم.. أثبت للعالم حرية فكره وسموه/ إن الأمثال علىٰ الاعتدال الاسلاي وسعة رحمته عديدة في التاريخ/ إن المدنية ونور العلم وهبا المصريين ملكة التمييز والحكم والذوق السليم/ إن الشعب المصري متمسك باستقلال بلاده أشد التمسك/ "إن الاستقلال لا ثمن له"/ الحكام الإنكليز لم يكتفوا... بذلك الجرح الدامي في قلب كل مصري، بل تعمدوا إهانته في كرامته.../ ولقد كانت مدارس الحكومة كلها مجانية قبل الاحتلال.../ الاحتلال البريطاني يقضي علىٰ الفقير بأن يبقىٰ فقيرًا../ وإنه لأمر تأباه المدنية وتقشعر منه... وجود محكمة لا قانون لها، ولا دستور، ولا تعرف العفو، ولا الاستئناف.../ إن المصريين ينفعلون ويسخطون كلما أفلت مجرم أجنبي من يد القانون المصري بفضل الامتيازات الأجنبية/ إن مصر أوفر تقدمًا ومدنية من بعض إمارات البلقان.../ وإن كل ثروات العالم لا تنسينا أبدًا كرامتنا وحقوقنا/ معارضة الوطنيين المصريين للاحتلال طبيعية ولا غرابة فيها/ مصر لا تسأل إحسانًا بمطالبتها بحريتها، بل تطلب حقًّا معترفًا به ولا نزاع فيه/ لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان ألا وهو استقلال الوطن وعظمته".

• ومن أمثلة الأسلوب الخبري في خطبته التي ألقاها في ٣ مارس ١٨٩٦م في "الإسكندرية" علىٰ جمهور من نخبة وأعيان المصريين، حيث جاء الأسلوب في بدايته تقريريًّا ملتزمًا مشيرًا إلي الأهمية الشديدة لما يطرحه الخطيب ابتداءً من خلال ما نبهه إليه بعض المقربين مشيرين عليه بعدم إلقاء خطبته في الإسكندرية خشية تطور الأمور إلىٰ ما لا تحمد عقباه؛ نظرًا لما يتمتع به أهل الإسكندرية من حماسة وطنية شديدة فضلًا عن شديد حماسته الوطنية..

يقول مصطفىٰ كامل[1]:

"يلزمني أن أقول لكم: إني قبل مبارحة القاهرة أخبرت بعض أصدقائي بأمر هذه الخطبة، فأشار عليَّ فريق منهم بعدم إلقائها معللين ذلك بقولهم: إنك إذا ذهبت إلىٰ الإسكندرية واجتمعت بأهلها وحادثتهم في مصائب مصر وآلامها ربما نتج عن ذلك شيء من هياج الأفكار الأمر الذي لا تحمد عقباه؛ لأنهم شديدو الوطنية وأنت شديدها، وقد تدعو شدة الشعور أحيانًا إلىٰ ما يتجاوز الحدود".

_ ثم تطور الأسلوب الخبري من مجرد التقرير إلىٰ نطاق التحذير بأنه ربما انتهز خصوم الوطن العزيز الأمر في إلقاء تبعة ما يحدث ومغبته علىٰ أهل الإسكندرية وعليه هو كذلك..

يقول مصطفىٰ كامل[2]: "وزاد بعضهم علىٰ ذلك قوله:

"ولربما انتهز خصومك ذ الوطن العزيز هذه الفرصة لإحداث ما يقلق ويضر ويلقي التبعة عندئذ علىٰ أهل الإسكندرية وعليك أيضا".

_ ويستمر مصطفىٰ كامل في تطوير أسلوبه الخبري من نطاق التحذير إلىٰ درجات من التقدير لهمم أهل الإسكندرية وإقدامهم مركزًا علىٰ أهم ما يتحلون به من شعور صادق بحقيقة الحوادث، وهو ما يقتضي -لمعرفتهم كيف تدار الأمور- أن يتمسكوا بالصبر والحكمة أكثر من ذي قبل، علىٰ نحو ما يقول[3]:

"... وجئت ثغركم الباسم معتمدًا علىٰ حكمتكم واعتدالكم، واعتمادي علىٰ همتكم وشجاعتكم. وإن أفضل صفة اتصف بها أهل الإسكندرية هي ولا غرو صفة

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٩٦، عن جريدة المؤيد عدد ١٨١٥.

(٢) الكتاب السابق: ص ٩٧، والجريدة السابقة: عدد ١٨١٥.

(٣) الكتاب السابق: ص ٩٧، والجريدة السابقة: عدد ١٨١٥.

الواجب والشعور الصادق بحقيقة الحوادث. والواجب اليوم علىٰ كل المصريين بصفة كافة إنما هو التمسك بالصبر والاعتدال أكثر من ذي قبل".

إنه بذلك يمنح أسلوبه مقادير من المنطقية والرصانة وسلامة التفكير الذي يأتي بالنتائج المحمودة بصورة كاشفة عن تَحلِّيه بواقعية خطابية..

وهو كذلك يكشف في أسلوبه عن شخصية وطنية من طراز فريد، إذ هو يقدر مسؤوليته نحو وطنه وكل مواطنيه، تلك المسؤولية التي تشربتها نفسه من خلال تعاليم دينه القويم بأنه "كلكم راع وكلكم مسؤول..."(١).

الأسلوب الإنشائي:

علىٰ أن ما بدا من حضور كثيف للأساليب الخبرية علىٰ مستوىٰ خطب مصطفىٰ كامل بصفة عامة لم يكن ليؤثر علىٰ وجود الأساليب الإنشائية وتأثيرها الثري بدلالاتها المتنوعة والمثيرة منذ بدايات مقدماتها وحتىٰ نهايات خواتيمها، علىٰ نحو ما يتجلىٰ من أول جملة في كثير من خطبه، إذ يقول: " سادتي وأبناء وطني الأعزاء.."

فقد استهل الخطبة بأسلوب النداء البليغ محذوف الأداة، حيث جاء الأسلوب محملًا بدلالات من الأريحية التي تنشئ في النفس ألوانًا من الاستمالة ذات أبعاد تنبيهية وتوقيرية وتقديرية متوجة بتاج العزة والاعتزاز بأنهم سادة يشرفون جميعًا بالانتساب إلىٰ وطن واحد..

وهو في استخدام أسلوب النداء في مستهل مقدمات خطبه التي يخاطب فيها الأجانب غالبًا ما يستهلها بقوله: " أيها السادة... "

(١) حديث نبوي شريف، متفق عليه.

وهو وإن بدا خاليًا مما أُفعِم به الأسلوب السابق من مشاعر وعواطف جياشة تجاه قومه وبني وطنه، فإنه في هذا الأسلوب يوالي مخاطبيه من الأجانب مزيدًا من التنبيه والتقدير مما يجعلهم يقبلون عليه، ويتلقون عنه باهتمام وتقدير كذلك...

علىٰ أن مصطفىٰ كامل لم يكن ليقتصر في استخدامه أسلوب النداء وتوظيفه علىٰ مقدمات الخطب، حيث كان يستخدمه بين الفينة والأخرىٰ في ثنايا خطبه ساعيًا بذلك إلىٰ بث ألوان من التنبيه، وتقديم مزيد من درجات التقدير قصدًا إلىٰ تجديد نيل استمالتهم وإقبالهم عليه، علىٰ نحو ما يقول عرضًا في أكثر من موضع: " يا أهل الإسكندرية... "، وقوله: " يا أهلها وأعز أبنائها... ".

أسلوب الأمر:

من الأساليب الإنشائية ذات الحضور الأثير لدىٰ مصطفىٰ كامل أسلوب الأمر بما له من دلالات فاعلة أو حاثة علىٰ الفعل ودافعة، أو آمرة به علىٰ سبيل الوجوب..

_ ولأهمية الأمر والقيام بمقتضيات فعله، فكثيرًا ما كان مصطفىٰ كامل يستخدمه بصيغة الدوام، أو ربطه بالحال الدالة علىٰ ذلك والحث علىٰ الفعل باستمرار، كما في قوله: " فداوموا أيها الوطنيون الأعزاء... وليكن مبدؤنا دائمًا "أحرار في بلادنا... ".

_ علىٰ أنه قد يبني فعل الأمر بصيغة الاحتراس تحذيرًا من مغبة الاندفاع بالقيام بأفعال قد تؤدي إلىٰ الانزلاق الذي قد يعرض المواطنين والوطن إلىٰ الوقوع في الخطر والضرر، ومن ذلك قوله: " فلنحترس جميعًا معشر المصريين من التعرض إلىٰ ما. راءه تعرض الوطن نفسه إلىٰ خطر عظيم ".

_ وأحيانًا ينهض فعل الأمر في بنائه الهادف إلىٰ مصلحة الوطن عن طريق التخلي عن الأفعال السلبية وفاعليها اليائسين حتىٰ لا يتأثر بسلبياتهم ويأسهم أهل

الأمل والعمل والنضال، علىٰ نحو ما يقول: " فليكن من واجباتنا أن نترك هؤلاء اليائسين في سفن يأسهم..."

_ وهو حين يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود علىٰ اختلاف فئات المجتمعات داخل كيان الوطن، إذ إن منهم الشرفاء، ومنهم من هم غير ذلك، وبينهم دخلاء يمثلون خطرًا علىٰ كل الفئات، فإن فعل الأمر يأخذ حيزًا عمليًّا بضرورة القيام بأفعال إيجابية تجاه فئة الدخلاء الذين يعدون ألد الأعداء، علىٰ نحو ما يقول: " فلتخبطوا أيها الوطنيون الفضلاء مساعي هذه الفئة السيئة، ولترودوا رجالها علىٰ أعقابهم خاسرين... ".

_ وهو في نهاية الأمر حين تكتمل لديه ملامح الصورة الشاملة للوطن بكل ملابساتها فإن أسلوب الأمر يتجاوز حدود البلاغة بجمالها إلىٰ حدود الواقع بضرورة خوض غمار مجابهاته، تطلعًا واستشرافًا إلىٰ حدود المستقبل الحر الكريم المستقل، علىٰ نحو ما نجد في قوله علىٰ لسان مصر آمرة أعز بنيها[١]:

" ألا فانصروني يا أعز البنين، ألا فارفعوا شأني بين الأمم، واجعلوا لي مكانًا بين الشعوب الحية المتقدمة".

وقوله عن المستقبل آمرًا كل الوطنيين[٢]:

" وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها، فاعملوا..."

وأسلوب الأمر في هذه الصيغ علىٰ ما يبدو بليغًا حاثًّا علىٰ العمل من أجل نصرة مصر ورفعة شأنها واقعًا ومستقبلًا، فإنه يبدو كذلك قد تجاوز الحث إلىٰ الوجوب، بل هو في تقديري في كونه للوجوب أوجب من كونه للحث والتشجيع...

---

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ١٠٤.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

إن التقرير الذي تثبته ألفاظ الأسلوب السابق لم يكن هو غاية مراد الكاتب مستعينًا في ذلك بأسلوب التفضيل

أسلوب الاستفهام:

من الأساليب الإنشائية ذات الحضور المثير لدىٰ مصطفىٰ كامل في خطبه أسلوب الاستفهام بما يثيره في السياقات والمقامات المختلفة من تأويلات وأغراض مختلفة إما أن تؤدي إلىٰ فهم معين للأمور، أو نزوع لفعل ما، أو تمثُّل غرض ما بتأويل بلاغي، أو تأمل معطيات الواقع مثار الاستفهام علىٰ وجه لا يغفل ذلك كله وغيره..

_ ومن أمثلة أسلوب الاستفهام ذات الثراء الدلالي والإيحائي قوله عن حقيقة الخلاف بين طرفي الاحتلال، اقترافًا من المعتدي القائم به، ومعاناةً من الواقع عليه تبعاته: " هل زمن الجلاء حان أو لم يحِنْ؟

فهو وإن كان يوحِي باستبطاء جلاء الاحتلال، فإن دلالة الزمن الحقيقي تبقىٰ محل اختلاف بين الطرفين: طرف معتدَىٰ عليه يرىٰ أن زمن الجلاء قد فات، وقد تأخر تحققه لأسباب متنوعة ومتعددة، وطرف معتدٍ منتفِع من استمرارية احتلاله من وجوه شتىٰ..

_ وقد يأتي الاستفهام لغرض النفي عن طريق استنطاق الطرف القائم بالاحتلال باقترافه أمور لا تتفق مع أخلاقه ومبادئه التي يصدرها للناس شرقًا وغربًا، حيث يتمثل المعنىٰ الدلالي لأسلوب الاستفهام وكأنه لسان حال أمة الاحتلال بأنه لا يرضىٰ لغيره ما لا يرضاه لنفسه، علىٰ نحو ما يقول مصطفىٰ كامل[1]:

"... فهل يرضىٰ أبناء إنكلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة في امتلاك بلاد حرة، واستعباد أمة حرة...؟

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ١٠٠.

_ وقد يكون الاستفهام لغرض التقرير، وذلك كما في قوله مخاطبًا أبناء مصر جميعًا مقرِّرًا ومستنهِضا[١]:

"... ولكن ألا تحبون كذلك مصر...؟"

وكذا قوله: " فهل لنا أن نفاخر الأمم يومًا من الأيام ببلادنا وأوطاننا؟

هل لنا أن نكون أمة حية قوية محترمة؟"

علىٰ أن التقرير الذي ينشئه أسلوب الاستفهام يتجاوز معطياته في الأسلوب الخبري، إذ هو في الاستفهام لا يكتفي بمجرد تقرير الأمر، بل هو يبتغي أن يبني عليه أن من يقر بحب مصر من بنيها الأوفياء، فإن لهذا الحب مقتضيات في حال السلب أن يحنوا عليها ويقووها ويدفعوا عنها كل شر وضر كأنهم بنيان مرصوص، وفي حال الإيجاب أن يكونوا علىٰ الدوام متحدين متحابين علىٰ كل عمل يعمل لمزيد خيرها وإعلاء شأنها بين الأمم والأوطان حتىٰ يفاخروا بها حرة مستقلة، وبأنفسهم أحرارًا شرفاء جديرين بكل احترام وتقدير..

_ وقد يكون الاستفهام إنكاريًّا أشد الإنكار إذ يقترن بالسخرية التي يستحيل معها أي قبول لذوي الاعتداء والافتراء، علىٰ نحو ما يتمثل في قول مصطفىٰ كامل في شأن المرجفين في أوربا وإنكلترا من ذوي الأغراض الدنيئة واختلاق التهم والأكاذيب في حق مصر ودينها السمح: " ماذا يقولون؟ إن مصر متعصبة تعصبًا دينيًّا...؟ "

إنه ينكر هذا الإنكار في عقر دار من يروجون تلك التهم الشنعاء، وهو ما يجعل الأسلوب بالغًا به من التأثير في نفوس المخاطبين مبلغًا عظيما، وهو يؤكد ذلك بما أردفه من أسلوب خبري مؤكد بإن وثبوت الجملة الاسمية والفعل الدال علىٰ

---

[١] أوراق مصطفىٰ كامل: د. يواقيم رزق: ص ١٠٥.

استحالة قبول مثل تلك التهمة في صورته المضارعة علىٰ كل حال، حيث قال: " إن هذه تهمة يستحيل قبولها. ومكانها من السخرية عظيم"[1].

ولإيمانه بقضية وطنه وحقه الطبيعي في الحرية والاستقلال كل الإيملن فإنه ينكر كل الإنكار علىٰ كل من يخالف طبيعة حقوق الأمم والأوطان، ومن بينها حق وطننا علىٰ نحو ما يقول: " فكيف يجد البعض من الأمور الخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا؟ "[2].

الأسلوب ونفسية المخاطبين:

مصطفىٰ كامل موهبة خطابية عبقرية، يفهم بامتياز نفسيات مخاطبيه، ويعرف كيف يصل إلىٰ نفوسهم من أقصر الطرق رغم حداثة سنه في ممارسة الشؤون السياسية مقارنة بالمخضرمين في ذلك من معاصريه، علىٰ أنه بتكوينه النفسي السوي كان يعمل دائمًا علىٰ تزكية مشاعر الحب وإيثار الآخرين داخل نفسه مُنحيًّا حب الذات سعيًا لبث مشاعر الحب والتقدير لدىٰ جميع الوطنيين تجاه وطنهم الحبيب الذي يسع الجميع، ويجب عليهم جميعًا أن يُخلصوا له في حبهم، ويعملوا جميعًا خلاصه من عدوه وعدوهم.

وقد كان يعتمد في أساليبه علىٰ رعاية نفسيات مخاطبيه من خلال محاولاته الدؤوبة لاستبطان دخائل نفوسهم، وإدراك ما يقبلونه أو يحبونه، أو غير ذلك، ومن ذلك خطبه بالإسكندرية لا تكاد تخلو من إشادة وتمجيد كفاحهم الوطني الذي صوره في أساليبه بأنه يبلغ حد الأستاذية والعمل علىٰ سريانها في ربوع الوطن، ولذا كان لمصطفىٰ كامل في نفوس الإسكندريين أسمىٰ المنازل وأحبها بصورة تجعل من يتأمل ذلك يدرك أن المجتمع الإسكندري أسرة واحدة، ومصطفىٰ كامل هو

---

(1) أوراق مصطفىٰ كامل: ٢٨٤.

(2) السابق: ٢٩٤.

لسان حالها الذي يتحدث عنها ولها، وهو كذلك قلبها النابض الذي يثمن وطنية أفرادها الذين لا يبدو مصطفىٰ حين يخطبهم يتميز عنهم في شيء إلا أنه وطني يخطب بلسانهم، وأنهم وطنيون يستمعون إليه بمشاعره ووجدانه وقلبه وروحه التي امتزجت بمشاعرهم ووجداناتهم بقلوبهم وأرواحهم وآذانهم، ومن ذلك قوله[١]:

" سادتي وأبناء وطني الأعزاء..كلما جئت إلىٰ الإسكندرية.... أعود شاعرًا بأن لي في هذه المدينة الزاهرة أساتذة في الوطنية عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان...."

_وإذا ما خاطب الأجانب تطرق إلىٰ أفهامهم ومواطن تفكيرهم بالطرق التي تناسب طبائعهم وتصل إلىٰ نفسياتهم عن طريق مخاطبتهم بداية بلغاتهم، وهو أمر له دلالات مثيرة ومؤثرة، إذ يدل ذلك علىٰ نبوغ الخطيب وتقديره هويات وثقافات مختلف مخاطبيه، حيث يعمل ذلك علىٰ إيجاد أريحية ونوع من الإيجابية لدىٰ المخاطبين والإقبال الذي يؤدي إلىٰ حسن تَمثُّل للأفكار والموضوعات وتحقيق درجات من الشعور بمشاعر الخطيب وعاطفته مما يولد نوعًا من الإعجاب به وتَفَهُّم ما يرمي إليه، ومن ذلك ما أبداه بمهارة فائقة في أعقد المواقف النفسية، إذ يوجه خطابه بحكمة وكياسة أسلوبية إلىٰ الأمة الإنجليزية كما في قوله من خطبة بالفرنسية يوم ١٣ أبريل ١٩٨٦م:

" أما فيما يخص الأمة الإنجليزية، فلا نستطيع إلا احترامها، إذ لا يصح أن يُقضَىٰ علىٰ شعب من الشعوب بخطأ بعض أفراد من أبنائه، لأنها لو كانت تعلم إحساسنا لأظهرت عدم رضاها باحتلال ضار كهذا الاحتلال، ولكانت لا محالة قضت عليه (تصفيق)"[٢].

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٢٢٩.

(٢) مصطفىٰ كامل للرافعي: ص ٤٥٣.

ثم يقول: " ولئن قالوا: ليس في السياسة شيء من الشرف، وإنها ليست شيئًا غير الكذب والخيانة، فإننا لا نستطيع أن نتصور طرفة عين أن أمة بلغت من العظمة والمدنية مبلغ الأمة الإنجليزية تجرؤ يومًا من الأيام علىٰ أن تخون علنًا سريرتها، وتحتقر أمام الناس شرفها (تصفيق شديد متواتر)"[1].

وإذا كان من الباحثين المرموقين من يتخيل "أن كل من شهد الاجتماع من الإنجليز قد عاش _ولو لحظات_ يسعده فيها أنه من غير أولئك الذين ارتكبوا جريمة الاحتلال لمصر والتي تعاب بها سمعة الشعب الإنجليزي" فإن هذا يدل علىٰ مدىٰ ما حققه الخطيب من نجاح في مسيرة الكفاح الوطني بالغًا بأسلوبه الخطابي من التأثير في نفوس السامعين من مختلف الأجناس وبمختلف لغات العالمين مبلغًا عظيمًا..

الأسلوب المنطقي الحجاجي:

غني عن البيان أن الاستدلال بالأدلة علىٰ ما يساق من الكلام يمنحه مقادير مهمة من الإقناع لما يمثله الاستدلال من إقامة الحجة وتقديم البرهان، ومعروف أن أنجع ألوان الاستدلال ما كان عن طريق شهادات الأجانب، لا عن طريق الأصدقاء والأقارب، علىٰ نحو ما كان من استدلاله بكلمة "بسمارك" وكذا استدلاله بكلمة "غامبتا".

إذا سلمت المقدمات سلمت النتائج، واستقام الأسلوب، وتحقق الإقناع لدىٰ المخاطبين، ومن ذلك استنكاره قلب الحقائق لدىٰ الإنجليز وتصويرهم الحق باطلًا، والباطل حقًّا حتىٰ يحققوا أغراضهم الدنيئة بالاستيلاء علىٰ مقدرات البلاد، وحرمان أهلها من حقوقهم في بلادهم علىٰ نحو ما نجد في قوله[2]:

---

(١)مصطفىٰ كامل للرافعي: ص ٤٥٣.

(٢) السابق نفسه

" ماذا يريد الإنجليز منا؟!

أيريدون أن نسمي سيئاتهم حسنات، ونصفق لضياع حقوقنا، واستيلائهم علىٰ بلادنا، وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ؟!

هل كانوا يسرون بمثل هذا الحال لو كانت بلادهم محتلة بدولة أجنبية؟

... أي مصري يرضىٰ عن قوم لا يعرفون العدل والإنصاف والمساواة؟"

علىٰ أن السياسي الذكي كثيرًا ما تحتاج رؤاه السياسية الشائكة إلىٰ التعويل علىٰ مقادير موفقة من التأثير النفسي فضلًا عن اعتماده علىٰ الدليل المقنع لحدود العقل، ومثال ذلك أسلوبه في توجيه خطابه إلىٰ الأمة الإنجليزية في خطبه، حيث بدا مصطفىٰ كامل خطيبًا فذًّا قد بلغ من الكياسة والبراعة حد الاقتدار علىٰ تجاوز ما يغلِّف ذلك الموقف من تحدٍّ نفسي، علىٰ نحو ما يتجلىٰ في أسلوبه، إذ يقول[1]:

" أما فيما يختص بالأمة الإنجليزية فلا نستطيع إلا احترامها، إذ إنه لا يصح أن يقضىٰ علىٰ شعب من الشعوب بخطأ بعض أفراد من أبنائه، لأنها لو كانت تعلم إحساسنا لأظهرت عدم رضاها باحتلال ضار كهذا الاحتلال....

إننا لا نستطيع أن نتصور طرفة عين أن أمة بلغت من العظمة والمدنية مبلغ الأمة الإنجليزية تجرؤ يومًا من الأيام أن تخون علمًا سريرتها، وتحتقر أمام الناس شرفها؟".

لا ريب في أن مثل هذا النهج الذكي يكون له مقادير من التأثير في نفوس المخاطبين من منطق إنساني لا يقبل ظلمًا ولا ضرًّا لنفسه، وينبغي ألا يقبله كذلك لغيره من بني الإنسان، ولا سيما إذا كان يتمتع بأسمىٰ ما تتحلىٰ به الإنسانية من مدنية وارتقاء، " وغني عن البيان أن الاستشهاد في موقف كهذا بأقوال أوروبيين لهم في نفوس السامعين منزلة مما يمهد لوقوع الدليل موقعه"

(١)مصطفىٰ كامل للرافعي: ص ٤٨٨، ٤٨٩.

قوة الأسلوب وحيويته وحكمته:

تميز أسلوب مصطفىٰ كامل في خطبه بصفة عامة بقوته الهادرة وحيويته الفائرة التي لا تحرك البشر فحسب، بل تتجاوز ذلك حتىٰ لتكاد تحرك الحجر، من خلال ما يسري فيها من روح الشباب وقوة وأمل وحكمة ويقين لا يتزعزع ثباته ورسوخه في أن المستقبل لوطنه، وأن الاحتلال إلىٰ زوال، وأن النصر حليفه إلىٰ الاستقلال، علىٰ نحو تسجله إحدىٰ الصحف الأجنبية في مقال حقيق بالتقدير يقول فيه كاتبه[1]:

"قرأت هذه الخطب التي ألقيت الأولىٰ منها عام ١٨٩٥م.... إن فيها قوة وحدة وروح الشباب والأمل تملأ هذه الصحائف وتهزها وتشعر اليد بارتعاش عند تقليبها...

إن القارئ عندما يطالع هذه الخطب لا يقرأها، بل يسمعها في الحقيقة؛ لأنها بالغة الغاية في الحياة...

ورغمًا عن هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة، ورغمًا من الحدة التي تلازم كل حب شديد، فقد استطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ علىٰ الاعتدال، ويقف عند الحد الواجب، فهو حاد اللهجة، وفي عباراته حركة شديدة أحيانًا بحيث قد تشعر أنها تجري وتعدو وتدوي كالسيل الجارف.. فيخيل إلىٰ الإنسان أنها ستأخذ في طريقها كل شيء، ولكن السد الذي أنشأته نفس شريفة، وفكر عال موجود" وقد تَمثل ذلك جليًّا في كثير من خطبه يبدو فيها الأسلوب جادًّا حادًّا كأنه قذائف سريعة الانطلاق، علىٰ أنها لا تخطئ هدفها، وهي تتدفق كأنها سيل هادر، لكنها في الوقت نفسه سيل هادٍ. ومنها ما سلفت الإشارة إليه في خطبته التي ألقاها بالإسكندرية في ٣ مارس ١٨٩٦م[2].

---

(١) مصطفىٰ كامل للرافعي: ص ١٩٤، عن جريدة "الجورنال دي كير" الفرنسية يناير ١٩٠٦م.

(٢) تنظر الخطبة في أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٩٦، ١٠٦.

ثم يقول كاتب جريدة " الجورنال دي كير" الفرنسية: وهناك أمر آخر يستوجب دهشتي، وهو أن هذه الحياة وحدة منسجمة متصلة، فهي خط مستقيم لا انقطاع فيه، فترىٰ من أول خطبته إلىٰ آخر خطبته ضميرًا واحدًا، وروحًا واحدة ليس فيها تناقض، ولا خطوة واحدة في غير موضعها، وإلىٰ مثل هذا ينتهي التعقل والصراحة والطهارة" ومن ذلك ما كان منه في خطبته التي ألقاها بالإسكندرية عام ١٩٠٠م كاشفًا وجامعًا بأعلىٰ صوته -دون تناقض- بين إيمانه الثابت بعقيدته القويمة الداعية إلىٰ كل خير، ووطنيته المستقيمة الداعمة وطنها بالروح وكل ما تملك دفاعًا عنه في كل مُلِمَّة، وعملًا في كل مجال علىٰ نصره وتقدمه وعزته، حيث يقول(١): " قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية، ولكني أرىٰ أن الدين والوطنية توءمان متلازمان....".

والأسلوب كما هو واضح جد مفعم بالقوة والحيوية، علىٰ أنها قوة متعقلة معتدلة لا هور فيها ولا شطط، وهي بحق قوة ذات حيوية مستقيمة في تيار منتظم.

ثالثًا: الحقيقة والمجاز والتصوير الأدبي:

آثر مصطفىٰ كامل في خطبه بصفة عامة أسلوب الحقيقة؛ وذلك لارتباطه بحقائق واقعية، سواء ما كان منها متصلًا بالماضي الذي لا بد له من الاستمداد من دعائمه الخالدة، وثوابته وعطاءاته التي لا تزال ماثلة، أو ما كان يتعلق بالحاضر الذي لا يمكن مجابهته ومعالجة مشكلاته وقضاياه بغير الحقائق، أو ما كان يتعلق بالمستقبل الذي لا يمكن إقامته علىٰ الخيال والأوهام.

_ ومن أمثلة الأسلوب الحقيقي إعلانه لأهل الإسكندرية في إحدىٰ خطبه بأنه ملتزم بأن يخبرهم الحقيقة معلِّلًا ذلك بواقعية محمودة خشية أن يؤدي إهمالها إلىٰ ما لا تحمد عقباه... " علىٰ نحو ما يقول(٢):

---

(١)أوراق مصطفىٰ كامل: د. يواقيم رزق، ص ٢٣٠.

(٢) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٩٦، ٩٧. من خطبة في ٣ مارس ١٨٩٦م.

" ويلزمني أن أقول لكم أني قبل مبارحة القاهرة أخبرت بعض أصدقائي بأمر هذه الخطبة، فأشار عليَّ فريق منهم بعدم إلقائها معللين ذلك بقولهم: "إنك إذا ذهبت إلىٰ الإسكندرية واجتمعت بأهلها وحادثتهم في مصائب مصر وآلامها ربما نتج عن ذلك شيء من هياج الأفكار الأمر الذي لا تحمد عقباه؛ لأنهم شديدو الوطنية وأنت شديدها..."

والنموذج السابق يجلي مدىٰ حرص الخطيب علىٰ إعلان الحقيقة، لما لذلك من أهمية قصوىٰ علىٰ كل المستويات، ولذا فإن أمر إقرار الحقائق لا مراء فيه. والخطبة موضوعها علىٰ سبيل الحقيقة هو الحديث مع أهل الإسكندرية بما عُرفوا عنه من وطنية شديدة عن مصائب مصر إبان الاحتلال، وفي هذا نوع مسؤولية أمينة ومراعاة لمعطيات الواقع عبرت عن حقائق واقعية لا يستهان بها من أجل أمانه وسلامه.

وفي قوله: " ربما نتج عن ذلك شيء من هياج الأفكار الأمر الذي لا تحمد عقباه" دليل علىٰ ما يتمتع به الخطيب من تعمق للواقع، وبعد نظره في رؤية مستقيمة لا تعملالواقع، وهي كذلك تعد العدة لتحقيق مستقبل كريم..

• والخطيب الوطني الذكي هو الذي لا يقر الحقائق فحسب، وإنما هو يقرها ويستثمرها خير استثمار بالاستمداد من الإيجابيات، وتقويم السلبيات، وهو ما صنعه مصطفىٰ كامل علىٰ هذين المستويين:

_**فعلى المستوى الأول**: نجده يعلن حقيقة أهل الإسكندرية، حيث يقول: " وإن أفضل صفة اتصف بها أهل الإسكندرية هي ولا غرو صفة معرفة الواجب والشعور الصادق بحقيقة الحوادث "[1].

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: ص ٩٧.

علىٰ أنه لا يكتفي بإعلان ذلك والصدح به، حيث يردف مقررًا أن الواجب الذي يحقق الهدف المنشود، ويبلغ الوطن غايته إنما يكون بالاعتدال حكمة في القول، واتزانًا في إبداء الشجاعة بهمة، وبذْل الجهود.

ـ**وعلى المستوى الثاني**: نجده يعلن أن البعض قد يفهم الاعتدال سلبًا علىٰ أساس أنه قد يعنىٰ به " الكف عن كل عمل يخدم البلاد ويسبب سعادتها، فتراهم مقصرين كل التقصير عن واجباتهم، وهؤلاء يخطئون الاعتقاد؛ لأن الاعتدال لا يفيد التهاون والإهمال، وما أجمل الاعتدال مع العمل علىٰ خدمة الأوطان! "[(١)].

إنه يقرر حقيقة مهمة يفرق فيها بين الاعتدال وبين التقصير والإهمال؛ فالاعتدال يؤدي إلىٰ القيام نحو الوطن بكل ما يجب من حقوق وواجبات وخدمة بهمة وحكمة وعزم من أجل سلامة البلاد ومصلحتها وخيرها..

التصوير الأدبي:

للصورة الأدبية في التعبير الخطابي آثار جمالية تبقىٰ في ذاكرة المخاطبين بعيدة الأغوار، إذ هي تعبر عن المواقف بصورة ذات معالم محددة لطبيعة الأحداث في صور ذات ألوان وتجسيدات وتشخيصات مادية تجعلهم يكادون يشاهدون حركاتها، ويتلمسون أبعادها، ويشتمون رائحتها، حيث يعمل ذلك علىٰ أن تبقىٰ عناصر الصورة بمنأىٰ عن الضياع مع مرور الأيام.

• ومن تلك الصور التي أنشأها مصطفىٰ كامل بعبقرية قوله[(٢)]:

"... وليس بعزيز علىٰ المصريين أن يفكوا قيود بلادهم، ويعيدوا إليها استقلالها ومجدها؛ فالعزة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة".

(١) أوراق مصطفىٰ كامل: د. يواقيم رزق، ص ٩٨.

(٢) من خطبة له في ٢٣ ديسمبر ١٩٨٩م، ينظر كتاب الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٤٢٣.

ففي الجملة الأولىٰ صورة استعارية كنائية تشخيصية ذات دلالات تأكيدية في قوله: "ويفكوا قيود بلادهم" حيث صور البلاد العزيزة بصورة إنسان مكبل في قيوده أمام أهله رغم أن فك قيده ليس بعزيز عليهم...!

وفي الجملة الثانية صورة استعارية كنائية تجسيدية ذات دلالات تأكيدية في قوله: "ويعيدوا إليها استقلالها ومجدها" حيث صور الأمة مفتقدة أمرين جليلين:

_**أحدهما**: يمثل حريتها وتَميُّزها،

_**وثانيهما**: يمثل أصالتها وعراقتها وسُمُوُّها بين الأمم، وإعادة هذين الأمرين يعني أنهما ليسا شيئين هلاميين، بل هما أمران يحس كل فرد من أفراد الأمة بقيمتهما في حياتهم.

والعبارة كلها تعد تشبيها ضمنيًا بليغًا ذا طرافة فنية مثيرة، إذ يصور أن القيود التي كبلت بها البلاد مهما تكاثرت وتآزرت للنَّيل من استقلالها ومجدها إزالتها ليست مستحيلة إذا تمت مواجهتها، والعمل علىٰ فكها قيدًا قيدًا بصورة صخرة ضخمة تذوب وتتفتت باستمرارية سقوط المياه عليها نقطة نقطة..

وهي صورة قد يرىٰ البعض من خلال طرفها الثاني المشبه به أن تحققها بطيء، وأثرها ضعيف، علىٰ أنها تبدو صورة تقريبية مفعمة بالثقة، وعدم افتقاد اليقين في تحقيق الاستقلال مهما طال أمد الاحتلال، فهو إلىٰ زوال، وهي صورة تبعث بعدة رسائل مهمة:

_ رسالة حث إلىٰ أبناء الوطن علىٰ أن يبذلوا كل ما في وسعهم..

_ رسالة تذكير وتحذير للاحتلال بأنه إلىٰ زوال.

_ رسالة طمأنة ويقين إلىٰ أبناء الوطن بأن أمر استقلاله آت لا محالة..

• ومن الصور التي تضج بالإصرار والتحدي لمواصلة الكفاح والنضال حتىٰ لو وقف الخطيب الوطني يناضل وحده في فضاءات الصحراء، ويسجل ذلك بمداد روحه علىٰ صفحات المياه التي هي رمز للحياة، قوله[١]:

"سأستمر طول حياتي _ولو بقيت وحيدًا_ أخطب في الصحراء، وأكتب علىٰ صفحات المياه ذلك الذي عرف فيه المصريون الخادم الأمين للوطن العزيز".

وهي صورة كنائية في جزئها الأول عن ثبات الخطيب علىٰ مبادئه، وإيمانه بقضية وطنه التي يهتف بمقتضاها _إذا هو افتقد الآذان المصغية_ في أسماع الزمان ووجدان الصحراء. وهي كذلك ليست صورة تهويمية في الفراغ، وإنما هي صورة تمتلئ إيمانًا بعطاء الدين القويم الذي منحه من اليقين ما جعله يصدِّرها بالفعل المضارع بدلالاته الاستمرارية والتجديدية في قوله: " سأستمر" معضِّدًا ذلك بالمشيئة الإلهية التي يكون صاحبها وهو الله عونًا ونصرًا لمن آمن به حقًّا، كما آمن برسله حقًّا، إذ يقول عزَّ وجلَّ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [٢].

وهو في قوله: "وأكتب علىٰ صفحات المياه..." يصور المياه بسجل ذي صفحات، وجاء بلازمه وهو الكتابة في صورة الفعل المضارع علىٰ ذلك السجل الذي يثير سؤالًا مضمونه: كم تكون عدد صفحات ذلك السجل إذا كان نهرًا أو كان بحرًا؟

لا ريب في أنه لا يمكن حصر عدد صفحات ذلك السجل بما فيه من الحب والوطنية المتدفقة الخالدة؛ إذ إن النهر الذي يحمل الحياة بمائه والبحر الذي يفيض

---

(١) من خطبة له في ٢٣ ديسمبر ١٩٨٩م، مصطفىٰ كامل للرافعي: ص ٤٢٣.

(٢) سورة المجادلة: آية ٢١.

بأمواجه لا يتوقفان إلا إذا توقفت الحياة، إنه يقدم لنا صورة لا نهائية من العطاء ما بقيت الحياة والأحياء..

بدت الصورة السابقة معبرة عن نفس قوية مناضلة مفعمة بالحيوية والإيمان بقضية الوطن، تلك القضية التي تعد وقودًا يمنحه الطاقة التي تغذي فكره وحبه ويقينه بصورة تجعله لا يخشىٰ _في سبيل الانتصار لوطنه_ شيئًا في الوجود علىٰ نحو ما يقول(١):

"وما دامت هذه الشعلة الوطنية تغذيني وتؤازرني، فإني لا أهاب شيئًا ولا أخاف أحدًا في الوجود".

وكذا بدت الوطنية في الصورة السابقة شعلة تضيء له الطريق، كما تبدو له زادًا ومدادًا يمنحه من القوة والانطلاق ما يجعله لا يخشىٰ أي قوة؛ إذ إن قوته مصدرها الحق الذي هو فوق كل قوة..

• وفي آخر خطبه السياسية التي ألقاها في ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧م تأتي الصورة مضيئة كضوء الشمس في سماها، حيث كشف اللثام عن الوسيلة (العلاج/ الحل) لأزمة الاحتلال تحقيقًا للغاية التي يرجوها الوطن متمثلة في الاستقلال محددًا عناصر تلك الوسيلة، ومفردات بطاقة العلاج، وآليات حل الأزمة في الآتي:

_ بث روح الوطنية الصحيحة.

_ الشهامة والإقدام، وإعلاء ملكتها من أجل سلامة الوطن وعزته.

_ ملء النفوس بحب السؤدد والرفعة، ومسابقة الأمم الراقية.

_ جعْل الاستقلال رائد الأمة.

يقول مصطفىٰ كامل مجيبًا عن تساؤل البعض عن الوسيلة الموصلة إلىٰ الاستقلال مستدلًا بتاريخ الشعوب: بأن "الوسيلة الموصلة إلىٰ الاستقلال تنحصر

(١) من خطبة له في ٢٣ ديسمبر ١٩٨٩م، ينظر كتاب الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٤٢٣.

في بث روح الوطنية الصحيحة، والشهامة والإقدام في الأمة، وإعلاء ملكتها وإيجاد حب السؤدد والرفعة، ومسابقة الأمم الراقية منها، وجعل الاستقلال رائدها"[1].

- فقد صور (الوسيلة) طريقًا موصلة للغاية المنشودة.

- كما صور الوطنية الصحيحة بكائن حيٍّ له روح يجب أن تسري وتنتشر لدىٰ أفراد الوطن كي يحيا قويًّا قادرًا عزيزًا، وكذا الأمر بالنسبة للشهامة والإقدام.

- وفي سبيل تصويره الوطنية بكائن حيٍّ له روح، فقد صورها كذلك بأنها ذات موهبة أصيلة قد صارت ملكة ثابتة تفيض بالعطاء في كل حال دون زبد المظاهر والافتعال.

- والصورة كذلك تعمل علىٰ إذكاء الروح الوطنية بصورة تجعلها ملكة ثابتة رفيعة المنزلة دون تَسفُّل أو مهانة.

- وقد جُلِّلت الصورة كلها بتصوير الاستقلال وتشخيصه في صورة الرائد الذي يعد دليلًا يجب أن يُتبَع، وإذا كان الرائد لا يكذب أهله، حيث إن الاستقلال والحرية سمة صادقة لهذا الوطن الحر، فإن أهله يجب ألا يكذبوه، إذ يتبعون كل سبيل في مواجهة الاحتلال حتىٰ يتحقق الاستقلال..

رابعًا: التلوين البديعي:

- **بين الترسل والتلون البديعي:**

جاء أسلوب مصطفىٰ كامل في خطبه بصفة عامة مزيجًا بين الترسل والتلون ببعض ألوان من المحسنات، وإن كان ن لا يخفىٰ علىٰ منصف غلبة الأسلوب المترسل الذي لم يكن ليتكلف فيه قيودًا فوق قيود الاحتلال، إذ هو منطلق من أجل الاستقلال بكل السبل ومختلف الصور..

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٤٨٥.

وإذا كان الترسل يعد هو الأنسب لطبيعة مصطفىٰ كامل وفنه الخطابي الذي وهبه من موهبته ما يعمل علىٰ توظيفه لخدمة قضية وطنه وغايته العظمىٰ في تَمتُّعه بالاستقلال، تلك الغاية التي يؤمن بأنها لا تتحقق بالشعارات وأجمل العبارات، فقد كان ترسُّله يبدو أكثر وأظهر في خطبه القصار ذات الطابع الارتجالي الذي يكون فيها وليد لحظات الموقف والمناسبة، حيث تكون العاطفة علىٰ سجيتها، والانفعال صادق دون تكلُّف أو افتعال، حيث كان ترسُّله ترسلًا بديعًا نابعًا عن موهبة تكاد تبلغ بصاحبها حد الإبداع ذي التأثير الخطابي البليغ في المخاطبين..

في حين كان يبدو علىٰ خطبه الطوال قدْر من العناية ببعض ألوان من المحسنات طمحًا إلىٰ تحقيق أكبر قدْر من الاستمالة والتأثير في نفوس المخاطبين ووجداناتهم بكل ألوان المؤثرات من أجل تحقيق الاستقلال الذي يعد غاية الغايات..

علىٰ أن المحسنات البديعية في خطب مصطفىٰ كامل بصفة عامة كان لها حضور عفوي عابر أمام ترسله المنطلق كالسيل الهادر، غير أنه منح هذا الحضور البديعي العفوي العابر من خلال ما تمتع به من موهبته خطابية فذة في التعبير عن القضايا والموضوعات وأفكارها الأساسية ثم تفرعها إلىٰ أفكار فرعية محقِّقًا للغته وأساليبه ومفرداته مقادير متوازنة من التوازن الإيقاعي والتوافق النغمي علىٰ مستوىٰ المفردات من خلال انسجامه النفسي والفكري بصور تجعل النفوس تُقبِل عليه، والآذان تأنس إلي خطابته، والعواطف تتأثر بصدق تعبيره؛ وذلك لما تَمتع به من ابتعاد عن التصنع قصدًا إلىٰ عدم التكلف إيمانًا منه بأن " لكل عاطفة أو معنىٰ نغمة خاصة... وهي أليق به، وأقدر علىٰ تمييزه"(١).

• ومن الألوان البديعية التي تآزرت مع غيرها من الأساليب الفنية التي بدت في خطب مصطفى كامل ذات تأثير بالغ:

١ـ حسن التقسيم:

(١) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٤٦م، ص ٣٢٢.

ومنه ما جاء ينم عن موهبة خطابية فذة تتمتع بطواعية أسلوبية منطلقة مقتدرة من خلال الجمع بين أمور متناسبة أو متآلفة ثم عرضها في معرض وتقسيم متوازن في وحدة خطابية ذات إيقاع وإيحاء وتأثير بليغ، علىٰ نحو ما تمثل في قوله[١]:

"... فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية".

فقد تآزرت الألفاظ مع الإيقاع من خلال ما بينها من حسن تقسي في التعبير عن المضمون أقوىٰ وأبلغ تعبير دون أن يكون للخطيب غاية من وراء ذلك أعظم غاية الاستقلال الذي يؤمن بتحققه كل الإيمان بصورة تكشف كذلك عن مدىٰ تمتعه بنزعة إيمانية لا تخشىٰ الموت كي يحيا الوطن عزيزًا بأجياله اللاحقة إذ يستمدون عزتهم من كفاح وجهاد الأجيال السابقة مستمدة عزتها من إيمانها بربها خالق الأوطان وكل بنىٰ الإنسان، وذلك علىٰ نحو ما يقول مصطفىٰ كامل[٢]:

" نعم – إننا لو تخطفنا الموت واحدًا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدن: كونوا أسعد حظًّا منا، وليبارك الله فيكم".

٢- السجع:

للسجع في فن الخطابة دور مهم في إضفاء أثر إيقاعي أثير في الإبداع النثري ومنه فن المقال؛ لما يتولد عنه من وقْع مؤثر في تلقي النص، ولا سيما إذا جاء عفوًا حسبما يتطلبه المقام وسياق الكلام.

---

(١) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٤٧٦.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

ولم يكن مصطفىٰ كامل بدعًا في تلوين خطابته عن طريق السجع الذي "من مميزات البلاغة الفطرية، فهو في أكثر اللغات يجري باطراد في الحكم والأمثال"[١]

والسجع في المثال السابق من خلال ألفاظه وتناسبها والمعنىٰ، ووفاء ذلك بالفكرة يُعَد نموذجًا لما ينبغي أن يكون عليه السجع حتىٰ تميل النفس إليه، حيث " تكون الألفاظ المسجوعة حلوة، جادة، لا غثة، ولا باردة... وأن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنىٰ، لا أن يكون المعنىٰ فيه تابعًا للفظ"[٢]

وذلك علىٰ نحو ما يتمثل في قوله: " فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا..."[٣].

٣ـ الطباق والمقابلة:

من الألوان البديعية ذات الاستخدام المناسب والدقيق في خطب مصطفىٰ كامل "الطباق" و"المقابلة" وذلك لما يتميزان به من إيقاعات ذات توقيعات ثرية ومثيرة، حيث إنه بضدها تتميز الأشياء، ولما يحملانه من دلالات معنوية دقيقة كاشفة للحقائق، ومؤكدة للرؤىٰ والمواقف..

- ومن ألوان الطباق ما صاغه مصطفىٰ كامل بصورة عفوية من خلال ما مثَّله من تضاد في سياق استفهامي استنكاري لسياسات الإنجليز في احتلالهم البلاد، واستيلائهم علىٰ مقدرات البلاد، وحرمانهم أهلها من كل حقوقهم ثم يريدون منهم أن يسموا سيئات الإنجليز حسنات، ويحسنوا الظن بهم، علىٰ نحو ما يقول:

---

(١) د. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، مطبعة السعادة، مصر ١٩٣٤م، ج١، ص٧٥ وما بعدها.

(٢) د. عبد العزيز عتيق: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤م، ٢١٦، ٢١٧.

(٣) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٤٧٦.

" ماذا يريد منا الإنجليز؟ أيريدون أن نسمي سيئاتهم حسنات؟ ونصفق لضياع حقوقنا واستيلائهم علىٰ بلادنا...؟"(١).

فقد كشف في البداية بصورة مباشرة من خلال الطباق بين لفظتي: " سيئات وحسنات " عن مدىٰ مغالطة الإنجليز في سياساتهم أنه تصل حد قلب الحقائق وتسمية الأشياء بغير مسمياتها.

بل تصل المغالطة حد مطالبة المعتدَىٰ عليه أن يصفق للمعتدي، كما هو الحال من خلال المطابقة في قوله: " ونصفق لضياع حقوقنا واستيلائهم علىٰ بلادنا"

ثم هو يجلي عدم إمكانية إحسان الظن بالمعتدِي المحتل من خلال ما يمارسه كل يوم من إساءات تجاه المصريين علىٰ كل المستويات، وذلك علىٰ نحو ما يقول مصطفىٰ كامل(٢):

"... القاعدة السائدة في السياسة الإنجليزية بمصر، هي تجريد المصريين من كل سلطة، وإبعادهم عن كل منصب ذي عمل، والاستعانة بالضعفاء والمارقين منهم علىٰ تمثيل مصر في المناصب التي يشغلونها بأسوأ صورة.."

ومصطفىٰ كامل بحسه الواعي الضارب في أعماق التاريخ يستثمر إمكانات أسلوب المطابقة البديع كاشفًا، بل مُعرِّيًا وفاضحًا اعتساف الإنجليز في سياساتهم تجاه المصريين حيث يقول(٣):

" إن الرجال لا يُحكَمون بمثل هذه السياسة، ولا تُدبَّر أمورهم بمثل هذا الاعتساف...

(١)الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٤٨٨.

(٢) الرافعي: مصطفىٰ كامل ص ٤٩١.

(٣) السابق: ص ٤٩٢، ٤٩٣.

ألا فاقرأوا معاشر الإنجليز التاريخ الإسلامي، وانظروا في أعمال أولئك الخلفاء العظماء الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة في كل وقت وفي كل مكان، ويمتثل للحق، ولو كان قائله من أحقر الناس".

تعد هذه المقابلة من خلال هذا الأسلوب البديع مقابلة تاريخية بين سياسة الإنجليز وأسلوب حكمهم وبين سياسة وحكم خلفاء الإسلام العظماء وامتثالهم للحق بصورة مطلقة، وهي مقابلة وجلي كذلك مدىٰ تأصُّل النزعة الدينية لدىٰ مصطفىٰ كامل في خطابته السياسية.

الخـــــاتمـــة

الحمد لله في الأولىٰ والآخرة، والصلاة والسلام علىٰ إمام الأنبياء والمرسلين معلم الناس الخير سيدنا محمد ﷺ، وآله، وجميع من تبعهم باجتهاد وإحسان..

وبعـــــــــد

فقد شفّت هذه الدراسة- بتوفيق الله- عن عدد من النتائج كان من أبرزها:

١- تَجلَّىٰ للخطابة دور جليل إبان الاحتلال البريطاني منذ سنواته الأولىٰ، حيث عملت علىٰ بعث الروح الوطنية وإيقاظها من أجل النضال والمقاومة، فكانت بحق من أهم الأسلحة في مقاومة الاحتلال.

٢- تمتع مصطفىٰ كامل بشخصية قوية تعرف هدفها جيدًا، حيث أدرك ما لديه من ضعف منذ إقدامه علىٰ دراسة الحقوق لكن قوة إيمانه بربه ثم ثقته بنفسه كانا أكبر ضامن لقوة شخصيته، ونجاحه لتحقيق هدفه، حيث كان التحاقه بالحقوق لكونها مدرسة الخطابة ومعرفة الأفراد والأمم حقوقهم.

٣- لم تكن النزعة الدينية لدىٰ مصطفىٰ كامل لتمثل أمرًا ثانويًّا، أو أمرًا ذا صوت واهنٍ أمام اهتماماته الوطنية والسياسية، ولا سيما في أصعب ظروف الاستضعاف إبان الاحتلال وسيطرته وغطرسته وافتراءاته، حيث شرع مصطفىٰ كامل منذ بداية تخرجه يخطب في قلب أوربا بحماسة وغيرة كاشفًا افتراءات الإنجليز وتُهَمَهم الباطلة بزعم تعصُّب المسلمين ضد المسيحيين في مصر، وكذا تعصُّب مصر ومعاداتها المدينة الغربية، معلنًا للعالم أننا أمة كريمة متسامحة مع إخواننا المسيحيين ليس في مصر فحسب، بل مع الأجانب من الأوربيين الذين خالطوا المصريين من مختلف ربوع مصر الآمنة مع مختلف فئات المصريين مُعضِّدًا ما يقول بحجج دامغة تاريخية وأخرىٰ واقعية، إذ يؤكد أن التاريخ شاهد أمين علىٰ مدىٰ ما تتمتع به الأمة الاسلامية والمصرية علىٰ مر التاريخ من تحضُّر ومكارم

وحرية يشهد بها الأجانب أنفسهم علىٰ مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية والدينية.

٤- العلاقة بين الدين والوطن علاقة تكاملية، وليست علاقة تقابلية أو عدوانية، إذ إن الدين هو أساس عمار الوطن، ومصدر كل خير وأمان علىٰ أسس راشدة، كما أن الوطن هو صمام الأمان للدين من أن يُنال من أي معتدٍ.

ولذا فإن عدم فهم الدين ومقاصده وغاياته السامية قد يؤدي إلىٰ خلل في إدراك صحيح علاقة الدين بالوطن، إذ إن التدين الحقيقي يعمل لمصلحة الوطن؛ ذلك أن جوهر الدين يقتضي أنه حيثما تكون المصلحة فثم شرع الله، وشرع الله كله خير للوطن والمواطنين جميعًا في كل حال ومآل.

٥- السياسة الحقة ليست كما يشاع عنها، وليست كما يمارسها البعض علىٰ أنها فن الممكن بما يعني أن السياسي يمكنه أن يقوم بعمل أي شيء في سبيل الوصول إلىٰ هدفه وغايته مهما تكن الوسيلة، لكن السياسة لدىٰ مصطفىٰ كامل في تاريخه السياسي وصولًا إلىٰ رئاسته لحزب سياسي هي خدمة لأمته بكل ما يملك من قوىٰ ومؤهلات مادية وفكرية بسخاء وإخلاص، ولذا فإن للسياسي الوطني دورًا جليلًا؛ حيث يبعث في أصعب الظروف برسائل الثقة في نفوس الوطنيين لمواجهة كل وسائل الدسِّ وتثبيط الهمم، وإشاعة اليأس في النفوس، حيث يستطيع أن ينتزع كل أثر لذلك، ويكشف كل غشاوة ضُرِبت علىٰ العيون كي ترىٰ انتصار الوطن وتقدُّمه كأنه حقيقة ماثلة، وهو بلا ريب ثمرة نضال كل الوطنيين والسياسيين الشرفاء إذ يعملون لذلك ما وسعهم العمل دون توقُّف بلا كلل أو ملل..

٦- تحلت مقدمات خطب مصطفىٰ كامل بصفة عامة بالإيجاز؛ حيث إنه لم يكن ليستغرق في تلك المقدمات - مهما كانت أهميتها - سوىٰ بضعة أسطر، ذلك أن أهميتها لم تكن أهم من الموضوعات ذاتها، ولذا فقد كان مصطفىٰ كامل في ذلك يَجِدُّ كل الجد للولوج إلىٰ رحاب موضوعات الخطب..

٧- تَحلَّت خُطَب مصطفىٰ كامل بصفة عامة بوحدة موضوعية جلية، حيث كان حريصًا علىٰ أن يحافظ عليها من أول جملة في مستهل موضوعاتها إلىٰ آخر جملة في نهاياتها علىٰ مستوىٰ أفكاره الأساسية وما يتفرع عنها من أفكار فرعية، متسلحًا في ذلك بشخصيته ذات الميراث الأدبي والثقافي، والحقوقي والسياسي، واللغوي الثري الجامع بين أكثر من لغة بما لها من ثقافة، وقد منحه ألوانًا من المنطق والفكر المنظم الذي جاء في عرض مفعم بالحيوية، وقوة الأسلوب، وحماسة العاطفة، وقوة التأثير.

٨- جاءت خواتيم خطب مصطفىٰ كامل في مجملها دقيقة سديدة، جامعة بين الإيجاز والوضوح، وسعة الرؤية وسداد الرأي، ودقة النتائج الجامعة بين الإقناع والقبول، وحسن الاستدلال والتعليل، وقوة الشخصية وحكمتها، واعتزازها بقضية أمتها من خلال صوت خطابي وطني سياسي مؤمن بعقيدته كل الإيمان.

٩- بدت ألفاظ خطب مصطفىٰ كامل بصفة عامة في خطبه واضحة مختارة بعناية تنم عن فصاحة لغوية، وحصافة فكرية، ونفس قوية تأتي عنايتها بمفرداتها نابعة من مدي إيمانها بكل ما أوتيت من طاقات تجاه وطنها الأبي، علىٰ أن قوة ألفاظه تنأىٰ عن حدود القوة المنفِّرة، والتشدق المتكلَّف، كما أنه أحسن توظيفها في مختلف الأحوال.

١٠- احتشدت خطب مصطفىٰ كامل بطوائف من الأساليب الخبرية والإنشائية، وغيرها من الأساليب التي زخرت بها خطبه، علىٰ أن الأسلوب الخبري كان أكثر احتشادًا في حضوره لما تقتضيه طبيعة الموضوعات، وما يريد أن يقرره الخطيب في وعي المخاطبين بوضوح علىٰ مستوىٰ الماضي المحقَّق، والواقع الموثَّق من أجل المستقبل الذي يؤمن بأن رايات تحقيقه ونصره بالكفاح وباليقين سترتفع وتخفق..

علىٰ أن الأساليب الإنشائية كان لها حضور أثير علىٰ نحو ما تمثل من خلال:

- أسلوب الاستفهام بدلالاته البليغة، وإيحاءاته الثرية...

- أو أسلوب الأمر بما له من دلالات فاعلة، أو حاثة علىٰ الفعل ودافعة، أو آمرة.

١١- وقد تميز أسلوب مصطفىٰ كامل في خطبه بصفة عامة بقوته الهادرة وحيويته الفائرة التي لا تحرك البشر فحسب، بل تتجاوز ذلك حتىٰ لتكاد تحرك الحجر، من خلال ما يسري فيه من روح الشباب، وما يتحلىٰ به من قوة وأمل ويقين.

١٢- وقد كان يعتمد في أساليبه علىٰ رعاية نفسيات مخاطبيه من خلال محاولاته الدؤوبة لاستبطان دخائل نفوسهم، وإدراك ما يقبلونه أو يحبونه، أو غير ذلك، مما أعانه في طرح رؤاه السياسية الشائكة بصورة موفقة فضلًا عن اعتماده علىٰ الدليل المقنع لحدود العقل.

١٣- آثر مصطفىٰ كامل في خطبه بصفة عامة أسلوب الحقيقة؛ وذلك لارتباطه بحقائق واقعية، سواء ما كان منها متصلًا بالماضي الذي لا بد له من الاستمداد من دعائمه الخالدة، وثوابته وعطاءاته التي لا تزال ماثلة، أو ما كان يتعلق بالحاضر الذي لا يمكن مجابهته ومعالجة مشكلاته وقضاياه بغير الحقائق، أو ما كان يتعلق بالمستقبل الذي لا يمكن إقامته علىٰ الخيال والأوهام.

١٤- بدت الصورة الأدبية بصفة عامة في خطب مصطفىٰ كامل للحركة الوطنية شعلة تضيء له الطريق، كما تبدو له زادًا ومدادًا يمنحه من القوة والانطلاق ما يجعله لا يخشىٰ أي قوة؛ إذ إن قوته مصدرها الحق الذي هو فوق كل قوة..

١٥- والصورة لدىٰ مصطفىٰ كامل واضحة المعالم، حيث كشف من خلالها اللثام عن الوسيلة (العلاج/ الحل) لأزمة الاحتلال تحقيقًا للغاية التي يرجوها الوطن متمثلة في الاستقلال محددًا عناصر تلك الوسيلة، ومفردات بطاقة العلاج، وآليات الخلاص.

١٦- جاء أسلوب مصطفىٰ كامل في خطبه بصفة عامة مزيجًا بين الترسل والتلون ببعض ألوان من المحسنات، غير أنه قد غلب عليه الترسل، ذلك إنه لم يكن ليتكلف في أسلوبه قيودًا فوق قيود الاحتلال، إذ هو منطلق من أجل الاستقلال بكل السبل ومختلف الصور..

علىٰ أنه قد أمدَّ أسلوبه المترسل من خلال ما تحلىٰ به من موهبته خطابية وفنية رفيعة ما جعل ترسُّله ترسلًا بديعًا بديعًا بالغًا حد الإبداع ذي التأثير الخطابي البليغ في المخاطبين..

١٧- وقد كان حضور المحسنات البديعية في خطب مصطفىٰ كامل بصفة عامة عفويًّا عابرًا، غير أنه منح هذا الحضور العفوي العابر مقادير متوازنة من التوازن الإيقاعي والتوافق النغمي علىٰ مستوىٰ المفردات والتراكيب من خلال انسجامه النفسي والفكري بصور تجعل النفوس تُقبِل عليه، والآذان تأنس إلي خطابته، والعواطف تتأثر بصدق طمحًا إلىٰ تحقيق أكبر قدْر من الاستمالة والتأثير في نفوس المخاطبين ووجداناتهم بكل ألوان المؤثرات من أجل تحقيق الاستقلال الذي يعد غاية الغايات..

والحمد لله في الأولى والآخرة..

المصادر والمراجع

• **القرآن الكريم**

أولًا: المصـــادر:

• صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، لبنان، بيروت ٢٠١٨م

• صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، للبنان

• عبد الرحمن الرافعي: مصطفىٰ كامل باعث الحركة الوطنية، ط ٥، دار المعارف ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

• د. يواقيم رزق مرقص وآخرون: أوراق مصطفىٰ كامل، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

• الجاحظ: البيان والتبيين، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج ٤. وكذا ط دار الفكر العربي، بيروت، ج٢.

• ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تقديم وشرح د. صلاح الدين الهواري وهدىٰ عودة، مكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت ١٤١٦هـ، ج١.

• ابن قتيبة: تاريخ الخلفاء، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٨٠م، ج٢.

• أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر، تحقيق محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي، مصر ١٩٧١م. وكذا ط المكتبة العصرية، بيروت.

ثانيًا: المراجع:

• أحمد الشايب: الأسلوب. دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب البلاغية، مكتبة النهضة المصرية١٩٩١م.

• أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٤٦م.

• د. أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، نهضة مصر.

• د. احمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، مصر، طبعة خامسة.
• د. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج١، مطبعة السعادة، مصر ١٩٣٤م.
• د. عبد الصبور مرزوق: الخطابة السياسية في مصر من الاحتلال البريطاني إلىٰ إعلان الحماية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧م.
• د. عبد العزيز عتيق: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤م.

ثالثًا: الدوريات والصحف:

• جريدة المؤيد: عدد ٣١ يوليو ١٩٥٨م.
• جريدة المؤيد: عدد ٤ مارس ١٨٩٦م.
• جريدة الليتندار إجبسيان ٣ مارس ١٩٠٧م.
• جريدة "الجورنال دي كير" الفرنسية يناير ١٩٠٦م.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
مقـــدمـــة	١٢٣٩
تمهيـــد	١٢٤٤
الفصل الأول: مصطفىٰ كامل: إضاءة تعريفية وبواعث خطابية	١٢٥١
الفصل الثاني: النزعة الدينية في الخطابة السياسية عند مصطفىٰ كامل: قضايا وموضوعات	١٢٦١
مصر ليست أمة متعصبة في الدين	١٢٦١
مصر ليست أمة متعصبة ضد المدنية الغربية	١٢٦٥
الدين والوطنية لا يتنافيان	١٢٦٧
الوطنية مسئولة الجميع ولا سيما المتعلمين	١٢٧١
السياسة في خدمة الوطن والتاريخ شاهد علىٰ سمو سياسة الإسلام	١٢٧٤
السياسة تعالج أمراض الأمم	١٢٨٢
الفصل الثـــالث: النزعة الدينية في الخطابة السياسية عند مصطفىٰ كامل:دراسة فنية	١٢٨٤
البناء الفني في خطب مصطفىٰ كامل	١٢٨٤
اللغة والأساليب في خطب مصطفىٰ كامل	١٣٠٢
الحقيقة والمجاز والتصوير الأدبي في خطب مصطفىٰ كامل	١٣١٨
التلوين البديعي في خطب مصطفىٰ كامل	١٣٢٤
الخاتمـــــــة	١٣٣٠
قائمة المصادر والمراجع	١٣٣٥